أولادنا

سجين زندا

بقلم : عادل الغضبان

عن : انتونى هوب



دار المعارف

أولادنا

١٤

سَجين زندا

بقلم : عادل الغضبان
عن : أنتوني هوب

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

جلستُ ذات صباح أتناولُ طعام الإفطار مع شقيقى « روبرت » وزوجته « روز » الجميلة الفتيّة فقالت لى :

— « حتّامَ يا "رودلف" تبقى عبدَ الفراغ ؟ هلاّ فكرتَ فى أن تقوم بعمل من الأعمال ؟ ! » فقلت :

— « يا عزيزتى "روز" ؛ لماذا تريدين أن أقوم بعملٍ من الأعمال ؟ هل سمعتنى يوماً أشكو من حالى وأتبرّم ؟ إنى لعلى حالٍ يغبِطنى عليها أكثر الناس : فمواردى المالية تفى أو تكاد بمطالبى ، وحاجاتى ومقامى الاجتماعى رفيعٌ خطير ، ألستُ شقيق اللورد " برلسدون " ونسيب زوجته اللادى

” برلسلون “ أجمل سيّدة في إنجلترا ؟ أفلا يكفيني كل هذا ؟ » فقالت

— « لقد بلغتَ التاسعة والعشرين من عمرك ، وما زلت عاطلاً من العمل ! » فقلت :

— « إنه ترَفٌ تعرِفه أسرتنا وتستطيعه . . . »

وخُيِّل إلى نسيبتي الفتّانة أني أغمِز نسبَها ، فما كانت أسرتها ، على غِناها وثرائها ، من مستوى أسرتنا الاجتماعي . فقالت في شيء من الاحتداد .

— « إنّ أسرتكم العظيمة لا يخلو تاريخها من أشياء . . . » فقاطعتها وقد أدركتُ مرماها ومغمزها وقلت :

— « إني سعيدٌ بشَعرى الأصهب [1] . . . » فقالت :

— « أنا لا أعيّرك به . . . » فقال أخي :

— « إن الشعر الأصهب يظهر في أسرتنا بين الجيل والجيل ، وكذلك الأنف المستقيم ، ولقد جمعت الوراثة في ” رودلف “ الأنف والشعر . » فقالت :

— « ما أثقلَ أن يشُذّ الإنسان عن قَسَمات أسرته ... » فقلت وقد أردت أن أُمعن في مضايقتها ومداعبتها :

— « يرضيني كلَّ الرِّضى أن أكون من سُلالة آل ” إلفبرج “.

(١) الشعر الأصهب : الأشقر الضارب إلى الحمرة .



ولابد أن أشرح للقارئ لماذا تضيق زوجة أخي ذَرْعاً بشعري وأنفي ، ولماذا انتسبتُ إلى آل « إلفبرج » .

« إن أسرة " إلفبرج "هي الأسرة المالكة في " روريتانيا " ، وبينها وبين أسرتنا نسبٌ قديم ، ذلك أنه في عهد الملكة " أليصابات "، قدم إلى إنجلترا رجلٌ رَثٌّ الثياب ولكنه نبيل الملامح والإشارة ، وطلب من الملكة الرّعاية والحماية ، وتميّز في بَلاطها بأنفه المستقيم الجميل، وشعره الكثيف الأصهب؛ فما عتَّم أن كسَب ثقة الملكة بأحكامه الصّائبة وآرائه السديدة . ولم يكن أحدٌ يعرِف عن أصله شيئاً ، ولا عن السَّبب الذي دفعه إلى النزول بإنجلترا . فأقام فيها ،وتزوّج بإنجليزية ،وأقطعتْه الملكة الأرَضين الواسعة فأصبح " كونت دي راسنديل " ثم لورد " برلسدون " .

وقبْل أن يلفِظ أنفاسه الأخيرة ، أفضى إلى زوجته بسرّه ،وأطلعها على الأصل الذي ينحدر منه ، وقال لها إنه من أسرة " إلفبرج " المتسنّمة عرش "روريتانيا "،وإنه الابن الثاني للملك " رودلف " الأول مؤسّس تلك الأسرة ، وأخبرها فيما أخبرها به، أن أباه قد نصّ في وصيّته على أن يخلُفَه على العرش بدلاً من أخيه الأكبر ، لأنه رآه أجدر بذلك، فقد كان أخوه رجلاً شرِس الأخلاق ، قبيح السِّيرة ، فثارت ثائرة أخيه لما وقف على مضمون الوصيّة ، فدبّر له مكيدة يغتاله فيها ولكنه نجا من تلك المؤامرة ، وهرب من بلاده ، والتجأ إلى إنجلترا . وطغى أخوه وتجبّر ، وسار أسوأ

سيرة حتى خلفه ابنه فوفّر للشّعب الأمن والعدل والرّخاء » .

ذلك هو تاريخ أسرتنا ، ولا تزال أسرة « إلفبرج » يتوارث أفرادها عرش « روريتانيا » حتى اليوم .

أعود بعد هذا الاستطرادإلى زوجة أخى ، فقد استأنفت حديثها وقالت :

– « صديقنا " السير جاكوب بورودال" سيعيَّن فى خلال ستة أشهر سفيراً فى إحدى الدول ، وقد أخبرنى " روبرت " أنه يسعده أن يعيّنك ملحقاً بتلك السفارة ، فهلاّ قبلتَ يا " رودلف " إكراماً لى وإسعاداً لخاطرى . . . ! »

قدَرْتُ هذا الاهتمام البالغ تحفُنّى به زوجة أخى ، فتملّكنى الخجل وأحببت أن أُدْخِل على قلبها شيئاً من السّرور فقلت :

– « يا عزيزتى " روز" إذا لم يطرأ علىّ طارئ يشغَلنى فى خلال ستة أشهر فسوف أقبل راضياً هذا المنصِب . . . » فأشرق وجهها وقالت :

– «ما ألْطفَك يا" رودلف"! إنك لَنِعْمَ الفتى الظّريف اللّطيف! »

قطعتُ على نفسى العهد بأن ألتحق بالمنصِب الذى سيعرِضه علىّ صديقنا السّفير ، ولكن لا يزال لدىَّ متّسع من الوقت ، فستّة أشهر ليست بالزّمن القليل ، فخطر لى أن أقوم برحلة إلى" روريتانيا "ولعلى أول فرد من أفراد أسرتنا يقوم بمثل هذه الرحلة ، فقد شاء أبى وسلفاؤه من قبلُ ، أن نتجنّب السفر إلى ذلك البلد، ونكون منه على طرَفِ البُعْد والهجران.

شغَل ذهنى هذا الخاطر فتمسّكت به ، ولماذا لا أزور هذا البلد الذى كان له شأن أىّ شأن فى تاريخ أوربا ؟ ولا سيّما أنى قد سمعت أطيب الأنباء عن ملكه الشاب الذى سيتبوّأ العرش بعد أسبوعين ، فصمّمت على أن أشهَد حفلة التتويج وما سيعقُبه من أعياد ومآدب .

نهضت عن المائدة ، وودّعت شقيقى وزوجته ، وذهبت أُعِدّ العُدّة لتحقيق هذه الرّغبة، وزعمت أنى مسافر إلى بلاد « التيرول » لأدرس عاداتِ القوم وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وأضع فى ذلك كتاباً . فسُرَّ أخى كل السرور وقال لى إن التأليف تمهيدٌ حسن للدخول فى الحياة السياسية . أما زوجته فقد أعجبتها الفكرة وطرِبت لها ، فدعتْ لى بالتّوفيق والنّجاح .





٢

غادرت إنجلترا ، ونزلت بباريس، فقابلت فيها السفير البريطانى وصديقاً لى يدعى « برتران » عُرف عنه أنه أديبٌ شاعر، فصحبانى إلى زيارة بعض المعالم الباريسية . وساءنى أن ألمح فى الصديق الشاعر آثار وجوم وكآبة، فحاولت أن أستشفَّ سرَّه، فعلمت من السفير أن صديقنا هذا يُحبّ أرملة شابّة من علِيْة القوم، تدعى « أنطوانيت دى موبان » ، وأنه يودّ الاقتران بها ولكن اختلاف طبقتيهما الاجتماعية يحول دون ذلك، فهى مطمح أنظار العظماء والكبراء فى فرنسا وفى غير فرنسا من البلاد الأوربية لما هى عليه من الغنى والشباب والجمال .

وكان السفير لا يفتأ يداعب صديقنا الشاعر، ويتخذ من غرامه

« بمدام دى موبان » وسيلة للمعابثة حتّى يصرفه عن مطمحٍ لن يجنى منه غير الخيبة واليأس .

وبينما كنا مجتمعين فى منزل صديقنا « برتران » ، نشرب القهوة ونتجاذب أطراف الحديث، عرض السفير لذكر « مدام دى موبان » فقال :

ــ « لقد زارها بالأمس الدّوق " ميكل دى سترلسو " » فقلت :

ــ « ومن يكون هذا الدّوق » ؟ فقال السفير :

ــ « إنه أخو ملك " روريتانيا " من زواج ثان غير متكافئ، فأمّ الدوق من أسرة متواضعة، ولذلك كثُر اللغط هناك لما رفعه أبوه إلى رتبة الدوقية وجعله دوق " سترلسو " وهى عاصمة " روريتانيا " » فقال « برتران » :

ــ « ألا يزال هذا الدوق بباريس ؟ » فقال السفير :

ــ « كلا . لقد عاد إلى « روريتانيا " ليشهد حفل تتويج أخيه " رودلف " الخامس وإن يكن هذا التتويج لا يرضيه ولا يسرّه ! »

وفى مساء اليوم التالى ركبت القطار إلى مدينة « درسد » ولم أقل لسفيرنا إن وجهتى عاصمة « روريتانيا » فلو كنت قلت له ذلك لكان الخبر قد وصل بعد زمنٍ قليل إلى إنجلترا ، فسفيرنا رجلٌ يحبّ الأنباء وإذاعتها .

واتّفق لى قبل ركوب القطار أن أرى فى المحطة سيدةً جميلة أنيقة المظهر تبلغ الثلاثين من العمر ويحُفّ حولها جمعٌ من الناس جاءوا

ليودّعوها ، فعرفت أنها « مدام دى موبان » . ولقد ركبت هى أيضاً القطار المسافر إلى « درسد » فتبسّمتُ فيما بينى وبين نفسى لهذا الاتفاق ، فقد كانت هذه السيدة مِحْوَرَ حديثنا أمس وها أنا ذا أراها اليوم رؤية العين . . .

وصل بنا القطار إلى « درسد » ثم ركبنا قطاراً آخر متّجهاً إلى عاصمة « روريتانيا » كأنما كانت وجهتنا نحن الاثنين واحدة . وفى أثناء السفر لم يفاتح أحدنا الآخر بأىّ حديث كان وإنما كنا نتخالس النظر بين حين وحين .

ولما بلغنا حدود «روريتانيا » ، رأيت موظف الجمرك يُطيل التّحديق فى وجهى مدهوشاً مستغرباً ، فأدركت أن سبب دهشته كان هذا الشبه العظيم بينى وبين آل « إلفبرج » ، فزال من نفسى كل شكّ فى أنى أنتمى إلى هذه الأسرة .

ولقد علمتُ من الصحف التى اشتريتها أن التّتويج قد قُدّم موعده ، وتقرّر أن يكون بعد يومين ، وأن العاصمة قائمة على قدمٍ وساق استعداداً لذلك اليوم العظيم ، وأن الناس يتوافدون إليها من كلّ حَدَب وصَوْب ليشهدوا أعياد التتويج .

واستمرّ القطار يسير بنا من ضاحيةٍ إلى أخرى حتّى وصل عند الغروب إلى مدينة « زندا » ، وهى مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة نحواً من ١٥ فرسخاً فقلت فى نفسى إن العاصمة لا بدّ أن تكون مزدحمة بالسّيّاح

والوافدين ، فقد يصعب عليّ أن أجد غرفة مريحة فى فندق من فنادقها ، فقرّرتُ أن أنزل بمدينة « زندا » وأن أقضى سحابة النهار التالى فى زيارة غاباتها وجبالها ، ورؤية قصرها الشهير ثم أنطلق بعد ذلك إلى العاصمة .

نزلت فى محطة « زندا » وانتظرت على الرّصيف قليلاً حتى يستأنف القطار سيره فأتجه إلى المدينة ، وما هى إلا دقائق معدودات حتى سار القطار بمن بقى فيه من الرّكاب ، ولمحت بينهم « مدام دى موبان » فقلت إنها لا شكّ تقصد العاصمة .

واستقرّ بى المطاف فى فندقٍ صغير تملكه سيّدة عجوز وابنتان لها على غايةٍ من الأدب والجمال ، فرحّبت الأمّ وابنتاها بى كلّ الترحيب ، ولم تكتم هذه السيدة العجوز ميلها إلى الدوق « ميكل دى سترلسو » الذى جعلته وصيّة الملك الراحل سيّد «زندا» بأسرها : أرَضيها وقصرها القائم على قمّة جبل لا يبعد عن الفندق الذى نزلت فيه أكثر من ميل واحد . ولم تتورع تلك السيدة أيضاً عن أن تفصح عن رأيها مُؤْثرةً الدّوق على الملك فالدوق واحد منهم يعرفونه ويحبّونه ، فى حين قضى الملك أغلب أيامه متغرّباً عن بلده فليس فى « زندا » إلا نفرٌ قليل قُدِّر له أن يراه ويعرفه .

كان هذا رأى صاحبة الفندق أبدته لى فى صراحةٍ عجيبة ، وزادت عليه إحدى الابنتين قائلة :

— « ثم يقالُ يا سيدى إنه حلق لحيته وشاربيه حتى أصبح لا يعرفه أحد . . . » فقالت الأمّ مذهولة :

ـ « أحلَق لحيته وشاربيه ؟ ! من قال ذلك ؟ » فقالت الابنة :

ـ « قاله "حنا" حارس غابة الدوق فقد رأى الملك . . . » فقالت الأمّ موجهة إلىّ الخطاب :

ـ « نعم . . . صحيح . . . إن الملك يا سيدى نزيل" زندا " فى هذه الأيام . إنه فى "جناح الصيد" القائم فى وسط الغابة ، فمن هنا سيذهب بعد غد إلى العاصمة ليتوّج ملكاً على" روريتانيا " . آه ! ليت الدوق يُتوَّج بدله ! » فصاحت الفتاتان فى أمّهما :

ـ « حَذارِ يا أمّ ! » فقالت الأمّ :

ـ « لستُ أنا وحدى مَنْ يرى هذا الرأىِ ويتمنى هذه الأمنية ! » فقالت الفتاة الصغرى وكانت شقراء جميلة :

ـ « أمّا أنا فإنى أكره الدوق الأسود . . . فهو ليس من الأسرة المالكة . . . إنى أريد ملكاً على" روريتانيا " يكون من سلالة آل " إلفبرج " ويكون متميّزاً بشعره الأصهب . . . يقال إن ملكنا ذو شعر أصهب جميل كشعرك يا سيدى . . . » فقالت الأمّ :

ـ « لقد دعا الدوق أخاه لقضاء أيام فى" زندا " وسيرحل بعد غد إلى العاصمة ولقد سبقه الدوق إليها ليُعدّ مُعَدّات استقباله وتتويجه. » فقلت :

ـ « إنهما إذن لعلى وفاق ووئام . » فقالت الأم :

ـ « إنه لكذلك . » فقالت الفتاة الشقراء عدوّة الدوق :

ـ « إنهما متحَابان كما يمكن أن يتحابّ رجلان يطمعان فى منصِب

واحد ويطمحان إلى تزوّج امرأة واحدة . »

فنَهرت الأم ابنتَها فازددت أنا فضولاً فسألت فتاتى الشقراء :

— « ومَنْ هذه الفتاة التى يتنازعان عليها ؟ » فقالت :

— « يعلم الناس أجمع أن الدوق الأسود — ونسميه هكذا يا سيدى لسمرة بَشَرته ولأنه ليس من سلالة " إلفبرج " الأصيلة — يبيع نفسه للشيطان فى سبيل أن يتزوج الأميرة" فلاڤيا "وارثة عرش " روريتانيا " فالدوق الأسود . . . »

وسكتت الفتاة فجأة ووقفت الكلمات حَيْرَى فى شفتيها عند ما دخل الغرفة رجل وهو يقول بصوتٍ خَشِنٍ :

— « منْ هذا الذى يتحدث عن الدوق الأسود فى مدينة سيادته ؟ ! »

فزال اضطراب الفتاة لما رأت القادم وقالت :

— « إنه صديقنا " حنا " فلن يَشِيَ بى ! . . . »

فنهضت الفتاتان وأمّهما يرحّبن بالقادم ويخبرنه ، وهنّ مشيرات إلىّ ، أنْ نزل بالفندق ضيف جديد فى طريقه إلى العاصمة لشهود مهرجان التتويج ، فحيّانى الرجل وهو ينظر إلىّ نظراتٍ غريبة فاحصة فقالت له الفتاة الشقراء مداعبة :

— « انظر يا عزيزى " حنا " إلى شعر ضيفنا ، إنه اللون الذى تحبّه . . . »

فلم يُحِرِ الرجل جواباً ، وبقى يحدّق إلىّ ، فقمت مستأذناً فى

الانصراف إلى غرفتى .

وخرجت من الغرفة فلحقت بى الفتاة الشقراء لتضىء لى بمصباحها الطريق إلى غرفتى ، فقالت لى وهى منصرفة :

ـ « ما أجملَ شعرك يا سيدى ! إن هذا اللون هو الذى أُحبّه وأُوثره . . . إنه اللون الأصيل لشعر أسرة " إلفبرج " . . . »





٣

نهضتُ فى الصّباح مبكّراً ، فتناولت طعام الإفطار وعلمت من فتاتى الشقراء أن وراء الغابة التى تفضى إلى قصر « زندا » محطة أخرى لسكة الحديد ، فقرّرت أن أتنزّه فى الغابة ، وأن ألقى نظرة على ذلك القصر ثم أستقلّ القطار من تلك المحطة .

وأوصيت صاحبة الفندق أن تتولّى إرسال حقائبى إلى عنوانٍ ذكرتْه لى فى العاصمة ، فودّعتها وودّعت ابنتيها ، ووعدتهنّ بأن أعرّج عليهنّ فى عودتى من العاصمة ، وخرجت أطوف فى تلك الغابة مُصَعّداً فى الهِضاب ، متجها إلى قصر « زندا » .

وبعد مسير نصف ساعة ، رأيتُنى أواجه ذلك القصر فإذا هو

قلعةٌ قديمة ذات جلالٍ ومَنْعة، تتألف من عِدّة أجنحة. ورأيت وراء القلعة العتيقة جناحاً حديثاً تفصله عنها هُوّة عريضة عميقة، ويصله بها جسرٌ متحرّك. فإذا رُفِع الجسر انفصلت القلعة عن كل ما يحيط بها.

وانحدرتُ من الهَضْبَة إلى الغابة الملاصقة للقصر الحديث، فمشيت بها أخترق أشجارها الكثيفة حتى وجدت جِذْع شجرة منطرحاً إلى الأرض كأنه يدعونى إلى الجلوس عليه، فجلست ومددت ساقَىَّ، وأشعلت لفيفة من التّبغ، وأخذت أدخنها وأنا مستسلم إلى التفكير والأحلام فى ذلك الجو الفاتن الساحر، حتى إذا فرَغت من تدخين اللفيفة لم أمنع نفسى من إغفاءة لذيذة فى ظل تلك الأشجار المتشابكة الغصون والأوراق، ولكننى صحوت بعد قليل على صوتٍ أجشّ يقول:

— «وحقِّ السماء لو كان الرجلُ حليقاً لقلت إنه الملك...»

فتحت عينَىَّ فرأيت رجلين بملابس الصيد يطيلان النظر إلَىَّ فى دهشة واستغراب، وكان أحدهما ضخم الجسم، قصير القامة، مستدير الرأس، أغبر الشّاربين، صغير العينين. وكان الثانى فى ريعان الشباب، نحيف القامة، أسمر البَشَرة، جميل المظهر. فتقدّم أكبرهما منى، فوثبت واقفاً وسمعته يقول لرفيقه الشاب: «القامة أيضاً هى هى» ثم حيانى بأدبٍ وقال:

— «هل لى أن أسألك عن اسمك يا سيّدى؟» فقلت:

— «ماذا لو ضربتما لى يا سيّدىَّ المثل الصالح وذكرتما لى أولاً

اسميكما ! » فاقترب الشاب منى وقال :

– « رفيقى هو الكولونل " سبت " وأنا " فِرِتْز ڤون تارلنهايم " وكلانا فى خدمة ملك "روريتانيا " » فقلت :

– « أما أنا فاسمى " رودلف راسنديل " وإنى قادم من إنجلترا ، وقد قضيت سنة أو سنتين فى خدمة الملكة " فكتوريا " »

فمد الشاب يده إلىّ مصافحاً وقال :

– « نحن إذن إخوة فى السّلاح . . . »

وكان أكبر الرجلين يتمتم بين شفتيه : راسنديل . . . راسنديل ثم تألق وجهه والتفت إلىّ وقال :

– « أتكون يا سيّدى من أسرة " برلسدون " ؟ » فقلت :

– « شقيقى هو اللورد " برلسدون " » فقال الرجل :

– « إن رأسك يُفْصِح عنك ... أليس كذلك يا "فرتز" ؟ » فقلت :

– « يلوح لى أن قصَّة أسرتنا معروفة هنا أيضاً . . . » فقال « سبت » :

– « كلّ المعرفة . . . فلو أقمت بيننا قليلاً لآمن بالقصة وصدّقها جميع سكان " روريتانيا " »

وفى تلك اللحظة سمعنا صوتاً يصيح :

– « " فرتز ! فرتز ! " أين أنت ؟ »

فاضطرب « فرتز » وقال :

– « الملك ! الملك ! »



وطلع علينا شاب وسيم ، نظر إلىّ ونظرت إليه فى دهشة بادية ، فلولا لحيتى وشاربای ومنظر عظمته لقلت إنه أنا . . . وبعد هذه المفاجأة التى لزم كلانا فيها الصمت ، نزعت قبعتى وانحنيت مسلّماً بأدب واحتشام ، ففك سلامى عقدة لسانه وقال :

ــ « " فرتزر " ! من الرجل ؟ »

وقبل أن يجيبه « فرتز » اقترب منه « سبت » وأخذ يحدّثه بصوت منخفض ، والملك لا يفتأ فى أثناء الحديث يرمُقنى بنظراته حتى إذا أنهى « سبت » ما أراد أن يُنْهيه إليه ، قهقه ضاحكاً وأقبل علىّ يقول :

ــ « ما أجمل هذا اللقاء يا ابن عمّى العزيز ؛ أهلاً وسهلاً بك ضيفاً كريماً بيننا . . . » فقلت :

ــ « قدمتُ إلى هذه البلاد يا مولاى لأشْهَد حفل التّتويج . »

وعاد الملك إلى الضحك بنفس سَمْحة رضيّة ، ثم قال يخاطب ضابطيه :

ــ « بودّى أن أرى سَحْنة الدوق "ميكل" عند ما يعلم أننا اثنان لا واحد . . . » فقال « فرتز » وقد بدت على وجهه علامات الجدّ والاهتمام :

ــ « ليس من الحكمة أن يزور السيّد "راسنديل" العاصمة فى هذين اليومين ! » والتفت الملك إلى « سبت » متسائلاً :

ــ « وأنت ماذا تقول ؟ » فقال « سبت » :

ــ « أقول ما قاله زميلى " فرتز " » . فقلت على الفور :

ــ « إذن أرحل عن " روريتانيا " فى هذا اليوم ! » فقال الملك :

— « معاذَ الله . . . أنت ضيفى الليلة . . . سنتعشّى معاً، وليكن غداً ما يكون ! إن المرء لا يلقى كلّ يوم ابن عمٍّ له . . . صحيح أننى لست فى قصرى غير أن أخى " ميكل " قد وضع تحت تصرّفى مسكناً من مساكنه فستنزل فيه على الرّحب والسَّعة . . . »

وتأبّط ذراعى ومشى بى ، وأشار إلى ضابطيه بأن يتبعانا ، فسِرْنا جميعاً نحو نصف ساعة فى تلك الغابة الجميلة . وعند خروجنا منها كنا إزاء مبنى متواضع يتألف من طَبَقة واحدة مشيّدة بالخشب ، فكان جناح الصيد الذى استضيف فيه الملك .

فما إنْ وصلنا إليه حتى خفّ إلى استقبالنا خادم قصير القامة يدعى يوسف ، وكان خادم الملك الخاص ، ثم خادمة عجوز عرفت أنها أمّ « حنا » حارس غابة الدوق ، ولم يكن فى ذلك الجناح غيرهما من الخدم ، فأصدر الملك أمره بأن يعدّ لنا طعام خفيف عند الظهر ، أما العشاء فيجب أن يكون مأدبة فاخرة حافلة بأطايب الطّعام والشّراب .

وقضينا النهار كله جائلين تارةً فى الغابات ، ومستريحين أخرى فى جناح الصيد ، نتبادل متنوّع الأحاديث ، جادّين فيها أو هازلين حتى أقبل المساء ، فجلسنا إلى المائدة نتناول طعام العشاء .

وكان الخادم يوسف يقوم على خدمتنا ويتحفنا بزجاجات النبيذ واحدةً بعد أخرى ، وكان الملك أكثرنا شراباً ، فبدأت الخمر تلعب برأسه ، والضابطان ينظران إليه بقلقٍ واضطراب حتى تجرّأ « فرتز » فقال له :

– « اذكر يا مولاى أنك فى صباح غد . . . » فقاطعه الملك قائلاً :

– « تذكَّرْ أنك ستتقدَّمنى بساعتين ، فعندى إذن ساعتان أستريح فيهما . »

ولاحظ « فرتز » أننى لم أفهم ما عنى الملك فقال :

– « سأذهب أنا والكولونل " سبت " فى الساعة السادسة من صباح غد إلى محطة " زندا " ، وسنعود منها مع حرس الشرف فى الساعة الثامنة لنكون فى معيَّة الملك إلى المحطة . . . » فقال الملك ولسانه يتلعثم :

– « حسن . . . حسن . . . لنشرب آخر زجاجة . . . »

شرب الملك وشربت معه حتى بدأت أنا أيضاً أشعر بالنشوة تدِبّ فى مفاصلى ، فما كاد الملك يشرب آخر جُرْعة من الزجاجة حتى قدم علينا الخادم يوسف وفى يده زجاجة نبيذ يعلوها الغبار فقال :

– « كلّفنى مولاى الدوق أخو جلالتكم أن أقدّم لكم هذه الزجاجة من النبيذ المعتّق عند ما تفرغون من شراب بقيّة الأصناف ، وطلب إلىّ أن أرجو من جلالتكم شُرْبها فى صحته وعربوناً على ولائه لجلالتكم . . . »

فصاح الملك بلسانٍ معقود :

– « يا صاحبىّ ويا ابن عمى ! اطلبوا منى ما تشاؤون ولو نصف مملكتى ، ولكن لا تطلبوا منى نقطة واحدة من هذا الشراب السّحرىّ . . .

إننى سأشرب الزجاجة كلها فى صحة أخى الدوق الأسود . . . »

وعلى الأثر أمسك الملك بالزجاجة ورفعها إلى فمه وأفرغها دفعة واحدة فى جوفه ، ثم رمى بها إلى إحدى زوايا الغرفة . ورأيناه فى الحال قد شبك ذراعيه فوق المائدة وأسند إليهما رأسه الثقيل . . .





٤

لا أدرى كم نِمْتُ فى تلك الليلة بعد ذلك الإفراط فى الشراب ، ولكننى أدرى أننى صحوت فجأة ورأيتنى مبلـّلا بالماء من رأسى إلى أخمَص قدمَىّ ، ووجدت أمامى « سبت » و « فرتز » تعلو وجهيهما صُفْرة كصفرة الأموات .

فوثبت واقفاً على قدمَىّ وصرخت فيهما :

— « إن مُزاحكما ثقيل بارد يا سيدَىّ ! » فقال لى « سبت » :

— « الوقت أضيَقُ من أن نقضيه فى العتاب والمشادّة . . . أيقظناك طويلاً فلم تستيقظ ، فعمَدْنا إلى الماء نرشّك به حتى تفيق وتصحو ... فالساعة الآن الخامسة . . . » فقلت مغضباً :

ـ « لتكن الخامسة أو الخامسة عشرة . . . » فقاطعنى « فرتز » وأمسك بذراعى وهو يقول :

ـ « انظر يا عزيزى " راسنديل ! " »

فنظرت حيث أشار ، فرأيت الملك ممدّداً إلى الأرض محتقن الوجه ، تعلوه حُمْرة شديدة . وكان هو أيضاً مبلّل الوجه والثياب فقال « سبت » :

ـ « فعلنا ما لا يفعل فى سبيل إيقاظه ولكن على غير طائل . » فركعت أمامه وجسست نبضه فإذا هو يضرِب ضَربات خفيفة ، فنهضت وقلت :

ـ « ما من شكّ فى أن الزجاجة الأخيرة التى شربها كانت تحتوى على مخدّر ، فعلينا بطبيب فى الحال . » فقال « فرتز » :

ـ « إن أطباء كلية الطب بأجمعهم لن يستطيعوا أن يوقفوه على قدميه فى الحال ليذهب إلى العاصمة على ما هو مقرَّر ، فلن يفيق قبل سبع ساعات أو عشر فأنا أعرِف ما أقول . . » فقلت مضطرباً :

ـ « والتتويج ؟ ! » فقال « فرتز » :

ـ « يجب أن نذيع أن الملك مريض . » فقلت :

ـ « لا مندوحة من ذلك . » فقال « سبت » :

ـ « إذا لم يتوَّج الملك فى هذا اليوم فلن يتوَّج أبداً . » فقلت :

ـ « ولماذا ؟ ألا يمرض الملوك كما يمرض الناس ؟ » فقال « سبت » :

– « إنك لا تدرى يا سيّدى النزاع الخفىّ بين الدوق والملك، كما أنك لا تدرى إلى أين تصل مطامح الدوق، فمصلحته أن يذيع عن الملك أسوأ الإشاعات، ولا يبعد أن يستغلّ هذه المكيدة التى دبّرها ليؤلّب الجيش والرعيّة على الملك، ويستوى على العرش بدلاً منه ... فإذا لم يظهر الملك اليوم فى العاصمة فقل عليه العفاء والسّلام . . . »

لزمنا جميعاً الصمت ، واستسلم كلٌّ منا إلى التفكير العميق حتى قطع « سبت » حبل السكوت وقال بلهجة خطيرة :

– « أنا أومن بالعناية الإلهية، فهذه العناية هى التى أرسلتك إلينا يا سيّد " راسنديل " » .

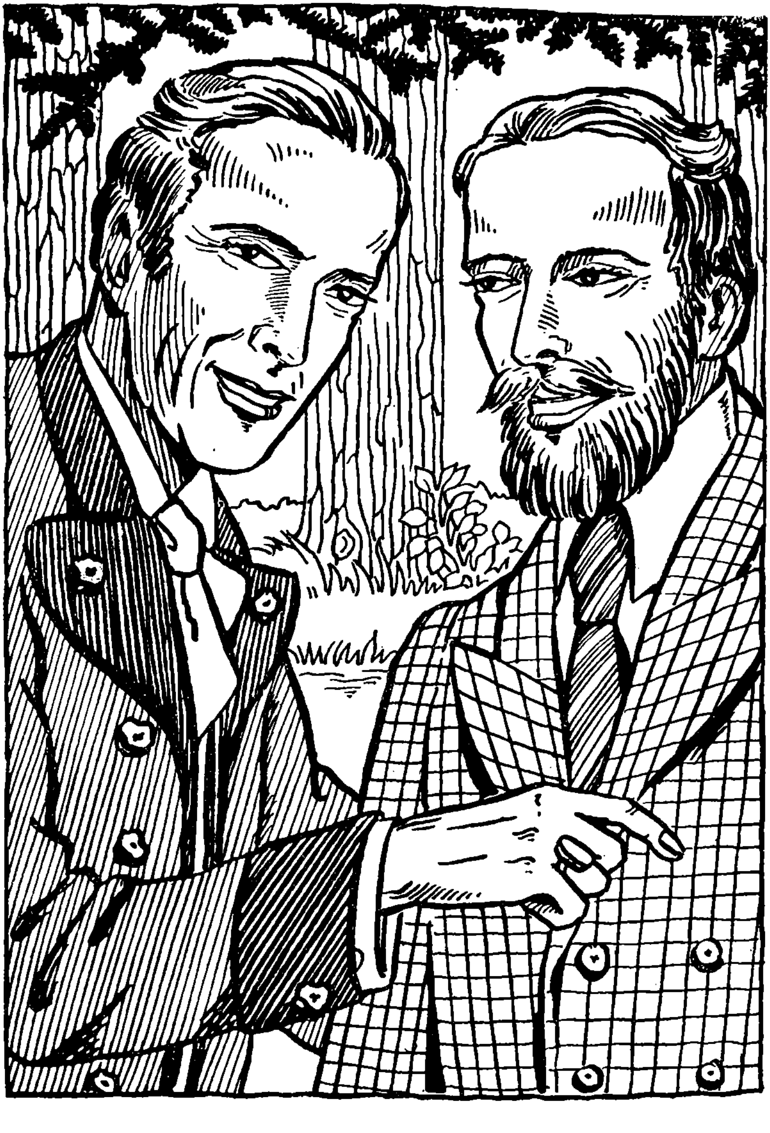
فتراجعت قليلاً بادىَ الاضطراب، فى حين رفع « فرتز » رأسه والتمعت عيناه بنور الدّهشة والسرور معاً فقلت :

– « هذا محال . . . أتريدنى يا سيّدى أن أحُلَّ محلَّ الملك ؟ ! . أىّ مصير ينتظرنى إذا انكشف أمرى ؟ » فقال « سبت » :

– « إنها الفرصة الوحيدة لإنقاذ الملك . . . وأُقْسِم أنْ لو حلقتَ لحيتك وشاربيك لما عرفك أحد . . . هل أنت خائف ؟ » فقلت :

– « كلا يا سيّدى . . . ولكن . . . » فقال « سبت » :

– « ولكن ماذا ؟ إذا لم يتوَّج الملك اليوم فسيكون نزيل السجن أو القبر ، أفلا تريد أن تنقذ حياته فضلاً عن إنقاذ عرشه ؟ »



سكتُّ فسكت رفيقاى، وكان لا يُسْمَعُ فى تلك الغرفة غير دقّات الساعة ، وبعد دقيقة أو دقيقتين قال « سبت » :

– « قلبى يحدّثنى بأنك قابل ما اقترحته عليك . » فقلت :

– « إنى لقابل ! » فقال « سبت » :

بعد حفل التتويج سينام الملك الليلة فى قصره ، فعلينا أن نقوم بما يأتى :

يبقى " فرتز " فى القصر ليحرس مخدع الملك ، ونمتطى أنا وأنت جوادين فارِهين ونطير بهما إلى" زندا "ويكون الخادم يوسف قد أطلعه على جليّة الأمر ، فأعود معه إلى العاصمة ، وتجتاز أنت الحدود بسرعة البرق . »

وأتبع « سبت » القول بالعمل ، فنادى الخادم يوسف وأمره بأن يحلق لى لحيتى وشاربى ، وأنهى إليه بما انتوينا ، فتملّكه الذّعر والاضطراب . وبينا كان يقوم بمهمته سأل « فرتز » الكولونل « سبت » :

– « وماذا تفعل بحرس الشرف ؟ فقد حان الوقت لأن نذهب إليه ونعود به إلى هنا . » فقال « سبت » :

– « كلا ! لن نذهب إليه ، فلينتظر ما شاء ، أو ليأت إلى هنا فيرى أن العصفور قد أفلت من القفص ، ونكون نحن فى طريقنا إلى محطة أخرى نركب منها القطار إلى العاصمة . » فقال « فرتز » :

ـ « والملك ؟ » فقال « سبت » :

ـ « سنخفيه فى القبو . . . وسأقوم بهذا فى الحال . وسأوصى الخادم يوسف بما يلزم . »

وانحنى على الملك فرفعه وخرج به من الغرفة ، وكانت أمّ الحارس « حنا » واقفة عند الباب ، فالتفتّ أنا إلى « فرتز » وسألته :

ـ « أتُراها سمعت ما دار بيننا من حديث ؟ » فقال :

ـ « إن " سبت " كفيل بأن يخرسها . »

وبعد دقائق عاد « سبت » وقادنى إلى غرفة الملك ، فلبست أحد ملابسه العسكرية وسألت « سبت » عن الخادمة العجوز فعرفت منه أنه حبسها فى غرفة من غرف القبو ، بعد أن قيّدها وسدّ فمها بمنديل كبير . ولما وضعت خوذة الملك على رأسى ، وقدّم لى « سبت » السيف الملكى ، أجال طَرْفه فىّ وتبسّم ابتسامة الواثق بما رأى ودبّر .

ودخل علينا « فرتز » مرتدياً بزّة قائد فئة فى الحرس الملكى ، وتوارى « سبت » قليلاً وعاد هو أيضاً لابساً بزّته العسكرية برتبة كولونل فى الحرس الملكى ، وكانت الجياد قد أُعدّت لنا فامتطيناها وسِرْنا بها نسابق الريح .

وكان « سبت » فى أثناء السّير يطلعنى على كل ما يجب أن أعرفه من تقاليد الأسرة المالكة والأنظمة الرسمية ، ويصف لى الأشخاص

المقرّبين إلى الملك وما هم عليه من أهواء وعادات ، ويذكر لى كيف يجب أن أتصرّف مع كل واحد منهم ، ووعدنى بأن يكون إلى جانبي مراقباً مرشداً .

بلغنا المحطة فحدّث ولا حرج عن اضطراب ناظرها لما عرف أن الملك قد غيّر خطّة السير إلى العاصمة . وعند ما وصل القطار ، ركبناه وسار بنا سيراً حثيثاً إلى غايته ، فنظرت فى ساعتى — ساعة الملك بطبيعة الحال — فكانت الساعة الثامنة ، وما زال القطار يجتاز الوهاد ويخترق النجاد حتى بدت لى أبراج الأجراس والكنائس فى مدينة عظيمة فسمعت « سبت » يقول لى :

— « هذه هى العاصمة يا صاحب الجلالة ! »

ثم أخذ يدى ليجسّ نبضى فوجده يدُقّ ببعض السرعة فقلت :

— « أوظننتَنى من صخرٍ يا هذا ؟ » فقال :

— « سوف تكون من صخر . . . وكيفما كان الأمر فسوف نصل قبل الموعد المحدد بساعةٍ على الأقل ، فيجب أن نرسل الرسل لنبلغ ولاة الشأن أن الملك قد حضر قبل الموعد المضروب ليخفّوا إلى استقبالك . . . »

ووقف القطار فى المحطة ، فسارع « سبت » و « فرتز » إلى النزول منه والوقوف إلى جانب الباب الذى سأنزل منه .

تركت مكانى فى القطار وأنا أبتهل إلى الله أن يأخذ بيدى فى هذه

المهمة الخطيرة التى أقدمت عليها . وكان الجوع قد أخذ بتلابيب مَعِدتى ، فتوجّهت إلى مطعم المحطة باذراً الدهشة والفوضى فى طريقى ، وكنت مع ذلك أسمع هُتاف الناس يبلغ عنان السماء وهم يصيحون :

عاش الملك ! عاش الملك !





٥

خرجت من المطعم يحرسنى « سبت » و « فرتز » ، وقبل أن أجتاز عتبة الباب تفقّدت مسدّسى وسيفى على سبيل الحَيْطة والحذر ، فرأيت كوكبةً من الضبّاط الشبّان تنتظرنى ، وفى طليعتها شيخ طاعن فى السنّ ، يزدان صدره بعدد وافر من الأوسمة ، فهمس « سبت » فى أذنى أنه المارشال « ستراكنز » . ووقف وراء المارشال رجل يرتدى معطفاً أرجوانيّاً عرفت من « سبت » أيضاً أنه وزير الدولة . وكنت قد وصلت إلى مقربة من المارشال ، فرحّب بى وأبلغنى اعتذار دوق « سترلسو » فقد شعر فجأة فى هذا الصباح بتوعّك فى صحته ، على أنه يرجو أن يسمح الملك فيمنحه

شرف استقباله فى الكنيسة ، فقبلت الاعتذار ، وأبديت أسفى على انحراف مزاج الدوق .

ثم توالى الكبراء والعظماء يرحّبون بى ويعربون لى عن ولائهم وإخلاصهم وما داخل قلب أحد منهم شكٌ ولا ريبة ، فامتلأت نفسى ثقة واطمئناناً .

وتألف الموكب فركبت جواداً وتقدّمت به الصفوف وإلى يمينى المارشال وإلى يسارى « سبت » فقد كان هذا الشرف من حقه لأنه الأمين الأول للملك ، وتبعنا الضباط على الجياد ، والمدنيّون فى المركبات ، وسار الموكب يخترق ميادين العاصمة وشوارعها وأزقّتها .

وبدت لى العاصمة من حيث مبانيها مقسومة إلى قسمين : قسم حديث بشوارعه العريضة ، وفنادقه الفخمة ، وقصوره الجميلة ، وقسم عتيق بأزقّته الضيّقة ، ومنازله القديمة . وفهمت من « سبت » أن القسم الحديث موالٍ للملك فى حين أن القسم العتيق موالٍ للدوق .

فلا عجب إذن أن أرى الشوارع الفخمة مزدحمة بالمرحّبين والمستقبلين ، وأن أشاهد الشبابيك وأطناف المنازل غاصّة بالرجال والنساء يهتفون بحياة الملك ، ويمطروننى بالورد والرّيحان ، فسرّنى ذلك كلّ السرور حتى لقد حسبتُنى الملك الحقيقى لهؤلاء الناس .

واتفق أن مررت تحت شُرْفة من الشُّرفات ، فانهال علىّ منها الزهر والورد ، فرفعت إليها رأسى فإذا هى مزدحمة بالنساء الجميلات المتأنّقات

ينثرن الورود تارة ، ويصفقن تارة أخرى، ولشدّ ما دهشت واضطربت عند ما رأيت فى وسطهن رفيقتى فى السّفر « مدام دى موبان » تطيل النظر إلىّ ، فاستعنت بكل ما عندى من رباطة جأش ، وحدّقت إليها طويلاً بعد ما وضعت يدى على مسدّسى ، فقد خُيّل إلىّ أنها قد تصرخ فجأة وتقول : « ليس هذا الرجل بالملك وإنما هو دجّال أثيم ! . . . »

وابتعد الموكب عن الشرفة ، ولمحت المارشال قد التفت إلى الوراء وأشار إلى الضباط إشارة خفيفة ، فتزاحموا حولى ليمنعوا الجمهور من الوصول إلىّ . وكنا قد بدأنا نجتاز الأزقّة التى يخلص سكانها للدوق ، ففهمت معنى إشارة المارشال فقد خشى على الملك أن تُلِمّ به بعض الأخطار ، ولكننى تجاهلت الأمر وسألته :

— « ما معنى هذا التغيير فى نظام الموكب يا مارشال ؟ » فقال :

— « إنه من باب الحرص والحذر ليس إلا يا مولاى ! »

فرجعت إلى نفسى وقلت : أمّا وأنا اليوم الملك فلأكُنْه كما أحبّ وأشتهى . فوقفت جوادى وقلت :

— « مَنْ كان أمامى من الحرس، فليبتعد حتّى يكون على بعد خمسين متراً منى . أما أنت يا مارشال ، وأنت يا كولونل " سبت " ، وأنتم أيها السادة المحيطون بى ، فقفوا جيادكم حتّى أبتعد أنا عنكم نحو خمسين متراً

أيضاً ، واحرصوا على أن لا تتعدَّوْا هذه المسافة التى أطلبها ، فإنى أريد أن يرى الشعب أن مليكه موفور الثقة به . »

فأذعن الجمع لما طلبت على كُرْهٍ من المارشال والكولونل « سبت » ، ورأيت المنازل والشّرفات خاليةً من كل زينة اللهم إلا من صورة الدوق الأسود ، وكان الشعب قد اختار هذه الوسيلة ليُعْرب عن تعلّقه بالدوق واستخفافه بالملك ، فحمدت الله على أن الملك الحقيقى قد جنّبته الأقدار رؤية هذا الاستفزاز .

وكأنما شجاعتى ورباطة جأشى ، وهذا التحدّى الظاهر من جانبى ، فضلاً عما كنت عليه من نضارة الشباب ، وأناقة البزّة العسكرية قد فعل كل ذلك فعله فى الجمهور ، وأثار فيه التناقض والاضطراب ، وحمل بعضهم إلى أن يهتف لى ويسمعنى كلمات الولاء والثناء .

وصل الموكب فى آخر الأمر إلى الكنيسة ، فلاحت لى أبوابها الضخمة وتماثيلها الجمياة ، وشعرت فى تلك الدقيقة بالجنون الذى ارتكبته ، فقد بدأ رأسى يدور من الهول ، وغشيت عينى سحابة لم أستطع معها أن أرى إلا صوراً وأشباحاً تحِفّ حوالىّ .

ترجّلت ودخلت الكنيسة ، ومشيت إلى قرب الهيكل وأنا شبه حالم أو نائم ، لا أرى سوى أشباح ، ولا أسمع سوى ألحان الأُرْغُن المتعالية إلى كبد السماء ، وكدت كذلك لا أرى الكردينال حينما نزل من عرشه الأسقفى وخفّ إلى استقبالى .

على أنه كان هناك شخصان واقفان جَنْباً إلى جَنْب وَضَحا لعينى تمامَ الوضوح : كان أولهما فتاة فى ريعان الصِّبا ، على جانب كبير من الجمال وإن خالطت وجهَها مَسْحَةَ من الاصفرار ، يزين رأسها ذلك الشعر الأصهب الجميل المأثور عن آل « إلفبرج » ، وكان الثانى رجلاً أسمر اللون ، أسود العينين والشعر ، فوثقت أنه الدوق الأسود . فلما رآنى امتُقع لونه وانقلب رغم سمرته إلى لون الشمع الأصفر ، فما كان ينتظر أن يرى الملك فى قلب العاصمة .

وتوالت علىّ المراسيم الدّينية وأنا ذاهل ، فقد لبست التّاج وحلفت اليمين وكأنى فى عالم آخر غير هذا العالم ، ولم أصْحُ من ذهولى إلا على صوت الأُرْغُن تُعزَف عليه التّراتيل والأهازيج ، ثم على أصوات المنادين يهتفون ويعلنون تتويج « رودلف » الخامس ملكاً على « روريتانيا ».

وتقدمتْ عندئذ الأميرة ذات الشعر الذهبى ، يحمل ذيل ثوبها اثنان من الوصفاء فوقفتْ إلى جانبى وصاح أحد المنادين وقال :

— « صاحبة السمو الملكى الأميرة " فلاڤيا " »

فحيّتنى الأميرة تحيّة ملؤها الجلال والخشوع ، وأخذت يدى ورفعتها إلى شفتيها ، فحِرْت ماذا أصنع ، فما وسِعَنى إلا أن أطبع على خدّيها قبلة حارّة ، فاحمرّ وجهها ولست أدرى لماذا .



وجاءت نوبة اللوق الأسود، فاقترب مني وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، كمن يفتّش عن منفذ يهرب منه . فلما تصافحنا وتبادلنا القبلات شعرت بيده ترتجف ، وبشفتيه ترتعشان .

وتوالى بعد ذلك السُّفراء والكبراء مهنّئين ، فقبلت التَّهنئات ، وقمت بمهمّتي كأحسن ما يقوم بها أيُّ ملك من الملوك .

وانتهى الاحتفال ، وسار الموكب إلى القصر ، وركبت أنا والأميرة « فلاڤيا » مركبة مكشوفة ، واجتزنا الأحياء القديمة فى المدينة دون أن يكدّر صفو الموكب حادثٌ من الحوادث .

وكان الشعب يهتِف لنا وكأنه نسى اللوق الأسود حتى ذهب الأمر ببعض الفتيات إلى أن يسألْنَنا :

ــ « متى يوم الزفاف ؟ »

فهزّتنى هذه الجملة هزًّا عنيفاً ، فلم يكن « سبت » قد أطلعنى على العلاقة العاطفية بين الملك والأميرة ، فكنت فى حيرة من أمرى لا أدرى أية خطّة أسلكها معها ، وازداد بَلْبالى عند ما سمعت الأميرة تقول لى :

ــ « يلوح لى يا " رودلف " أنك تغيرت ، فأنت اليوم غيرك بالأمس فإنى أراك هادئاً رزيناً مهموماً ، أبدأت تجدٌّ فى الحياة ؟ »

كفتنى هذه الكلمات لأعرف رأى الأميرة فى الملك فقلت مغمغماً :

ــ « أوَيرضيك هذا منى ؟ » فقالت :

ـ « أنت تعرف آرائى وأفكارى . » فقلت :

ـ « سأجتهد أن أكون عند حسن رأيك ، وأقسم لك يا ابنة العم أن حفل هذا اليوم قد أثّر فىّ تأثيراً كبيراً . »

فتبسّمت وأشرق وجهها حبوراً ثم عبست وقالت :

ـ « ألاحظت سَحْنَة " ميكل " ؟ » فقلت :

ـ « رأيته حزيناً كئيباً . » فقالت :

ـ « أرجوك يا عزيزى " رودلف " أن تكون يقظاً حذِراً ، فلست تجهل أن أخاك . . . » فقلت مقاطعاً :

ـ « يطمع فى ما هو لى ، وفى شيءٍ لم أظفَرْ بعدُ به ، وأرجو أن أكون أهلاً للحصول عليه ! »

شعرت أنى بحديثى هذا قد قطعت بعض العهود على الملك ، ولكننى انزلقت إلى ذلك مُكْرَهاً بعد ذلك الصّوت العَذْب الذى ملك علىّ كلّ مشاعرى ، فاستسلمت قليلاً إلى التفكير ثم انتبهت على صوت الأبواق ودوىّ البنادق إيذاناً بوصولنا إلى القصر .

نزلتُ من المركبة وساعدت الأميرة على النزول ، فتأبّطت ذراعى وصعدنا السلّم الرخامى وقد اصطفّ على درجاته جمهرةُ الخدم بثيابهم المزركشة ، وهكذا رأيتُنى فى قصر أجدادى تحيط بى الأبّهة والفخامة .

وتناثر القوم حول الموائد ، فجلستُ إلى المائدة الملكية ، وجلستْ

الأميرة عن يمينى وإلى جانبها الدوق الأسود مفكراً كئيباً ، وجلس إلى شمالى نيافة الكردينال . وكان « سبت » واقفاً وراء مقعدى كالصنم لا يتحرك . أما « فرتز » فقد جلس إلى إحدى الموائد مضطرباً ممتقع اللون .

فما وسعنى فى تلك اللحظة إلا أن أفكر فى ملك « روريتانيا » وأقول فى نفسى ترى ما شأنه وكيف حاله ؟ . . .





٦

بعد حوادث هذا اليوم العظيم وقد أجدت فيه التمثيل ، أويت إلى مخدعي وصحبني إليه « سبت » و « فرتز » ، فما كدت أدخله حتى استلقيت إلى أحد المقاعد متعباً كل التعب . ثم تبادلنا الأحاديث ، وكنا نحن الثلاثة على غاية من السرور لما أصبناه من نجاح . غير أن « فرتز » لاحظ عليّ أني كنت كثير الاهتمام بالأميرة مما زاد في كآبة الدوق الأسود وسُخْطه فحذّرني أن لا أندفع وراء عاطفتي . فقاطعه « سبت » وهو يقول :

– « ما لنا وللأميرة الآن ؟ هل أنت مستعدٌ يا سيد " راسنديل " للرحيل ؟ »

فقلت في شيء من الدّعابة والمزاح :

ـ « نعم كلّ الاستعداد . فالساعة الآن الخامسة ، وعند منتصف الليل سأعود كما كنت " رودلف راسنديل " فتبسَّم « سبت » وقال :

ـ « سيكون هذا من حسن حظّك، فَلأَن تعود "رودلف راسنديل" خيرٌ من أن تصبح المرحوم " رودلف راسنديل" ، وكيفما كان الأمر فالقلق يساورنى فقد رأيت الدوق الأسود يتسلم برقية من" زندا " ويدخل إحدى الغرف ليقرأها ، فلما خرج كان أصفر الوجه ، جاحظ العينين ، كمن رأى شبحاً من الأشباح . »

زادتني مخاوف « سبت » رغبةً في المسارعة إلى الخروج من العاصمة فقلت له :

ـ « لبَّيْك ، متى تريد أن نرحل ؟ » فقال :

ـ « تعلم أن الدوق هو حاكم المدينة فلا بدّ لنا من ترخيص بالمرور نستطيع به مغادرة المدينة ،فهاك القلم فوقِّعْ على هذا الترخيص، وإليك نموذجاً من توقيع الملك . » فصحت فيه مشمئزاً :

ـ « ما تعوّدت التزوير يا سيّدى . . . » فقال :

ـ « الغاية تسوّغ الواسطة . . . وليس هذا بتزوير فإنما نخدم الملك . وعلى كل حال دعني أرتكب أنا هذا التزوير فضميرى لا يوبّخنى عليه . »

وبأقلّ من تردّد الطرف وقّع على الترخيص باسم « رودلف » محاكياً

توقيع الملك بحيث لا يميِّز المحاكاة غيرُ الخبراء ، ثم خاطب « فرتز » وقال :

ـ « والآن يا "فرتز" عليك بحراسة مخدع الملك، فأذِعْ أن الملك قد أنهكه التّعب فنام ، ولن يرى أحداً قبل الساعة التاسعة من صباح غد، أفهمت ؟ » فقال « فرتز » :

ـ « أجلْ فهمت . ولكن هب الدوق الأسود حضر وألحّ فى الدخول . . . » فقال « سبت » :

ـ « عليك أن تقول له إن الأمراء الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى الحرّ هم وحدهم من يستطيع الدخول على الملك فى أثناء رقاده . » فقال « فرتز » وهو يضحك :

ـ « أحْبِبْ به من جواب سيكسبنى محبة الدوق ورضاه ! » فقال « سبت » :

ـ « إذا فتح باب مخدع الملك فلا أوَدّ أن أعود فأراك حيًّا ! » فقال « فرتز » شامخ الأنف :

ـ « اتّكل علىّ يا حضرة الكولونل ! »

وجاءنى « سبت » بملابس جندى تابع له فلبستها ثم ودّعْنا « فرتز » وخرَجنا لا من باب المخدع ، بل من باب سرّى فى أحد الجدران كان « سبت » يستخدمه كثيراً أيام الملك الراحل . وأفضى بنا ذلك الباب إلى رواق طويل ، فاجتزناه حتى وصلنا إلى بابٍ ضخم فتحه « سبت » ،

وخرجنا منه إلى أحد الشوارع الملاصقة لنهاية حديقة القصر . ورأينا هناك رجلاً ينتظرنا بجوادين ، فقفزنا إليهما وسرنا نخترق الشوارع وكانت لا تزال تعجّ بالناس فما أثرت فيهم أية ريبة ولا سيما أنى كنت قد أنزلت قبعتى حتى أذنى ، وداريت وجهى بمعطفى . فسرت وزميلى هادئين مطمئنّين حتى بلغنا سور المدينة ، ووقفنا إزاء باب مقفل . فقال لى « سبت » :

— « أعِدّ سلاحك ، فلو حاول الحارس أن يتكلم فيجب القضاء عليه . »

فوضعت يدى على مسدّسى استعداداً للطوارئ غير أن إذعان الحارس لمضمون الترخيص الذى أبرزناه له لم يحوجْنا إلى استعمال العنف ، فمرقنا من الباب مروق السّهم وأطلقنا لجوادينا العِنان .

وكان الليل يهبط شيئاً فشيئاً حتى لفّ الكون بردائه ، ثم طلع القمر يتهادى فى القُبّة الزرقاء ، فوقفنا هنيهة فى بعض البقاع لنستريح ونريح جوادينا ، وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة . وبعد أن قضينا زهاء نصف ساعة قلت :

— « بودّى لو أعرف ماذا نقلت تلك البرقية إلى الدوق الأسود من أخبار ؟ » فقال :

— « وأنا أيضاً . . . »

ولم يتابع « سبت » كلامه بل وقف يُرْهِف أذنيه ثم قال لى :

— « أسامعٌ أنت شيئاً ؟ »

فأرهفت أنا كذلك أذنى فسمعنا أصوات سنابك خيل تجدُّ فى أثرنا، وبإشارة من « سبت » وثب كلٌّ منا إلى صَهْوة جواده وانطلقنا نسابق الرياح .

ووقفنا بعد برهة نتنصّت من جديد فلم نسمع شيئاً، فتابعنا السير ثم عاد الصدى يطرق مسمعينا، فوقفنا وترجّل « سبت » ، ووضع أذنه على الأرض ثم نهض وقال :

— « إنهما اثنان على بعد ميل تقريباً ، ومن حسن الحظ أن الطريق ليس فى خطّ مستقيم . . . »

وعدنا ننتهب الأرض انتهاباً حتى وصلنا إلى غابة « زندا » عند مفترق طريقين فقال « سبت » :

— « إن طريقنا هو الطريق الأيمن ، أما الثانى فيوصل إلى القصر ... فترجّلْ » فقلت مدهوشاً :

— « أنترجّلُ لكى يدركنا المطاردون ؟ » فقال فى غلظة وجفاء :

— « ترجّلْ . . . »

فأذعنت لأمره ، وقُدْنا جوادينا إلى داخل الغابة ، وعصبنا أعينهما ومكثنا ننتظر فقلت :

— « تريد أن تعرف من يطاردنا ؟ » فقال :

— « هو ذاك ، كما أريد أن أعرف إلى أين هما ذاهبان . »

وكان السكون مخيّماً على تلك البقعة ، والقمر يرسل أشعّته الفضّية

فينير الطريق ، ولم يطل انتظارنا حتّى همس « سبت » قائلاً :

ــ « انظر إليهما لقد اقتربا . . . »

فنظرت إلى الطريق وقلت :

ــ « إنه الدوق ! » فقال :

ــ « أجل . . إنه الدوق . »

ولم يخطئنا النظر فقد كان القادم هو الدوق يتبعه رجل ضخم عرفته كل المعرفة ، فإنه « ماكس هولف » أخو « حنا » حارس غابة الدوق ووصيفه ، ورأيت « سبت » قد شهر مسدّسه ، ووضع إصبعه على الزّناد. ولست أشكّ فى أنه قد يرضى بالنزول عن عشر سنوات من عمره فى سبيل اصطياد الدوق فى تلك اللحظة ، وإنقاذ الدولة من شروره . فأمسكت بذراعه فأشار إلىّ إشارة يدلّ معناها على أنه لن يقدم على مثل هذا العمل .

وأعمل الرجلان مِهْمازيهما فى شاكِلَتَى الجوادين ، وانطلقا فى طريق القصر حتّى غابا عن الأنظار. وانقلبنا نحن إلى جوادينا فسارا بنا خَبَباً فى طريق جناح الصيد ، وما زلنا نغُذّ فى السير حتّى بلغنا سور الحديقة فإذا كلّ شىءٍ هادئ ، لا صوت ولا حركة . فترجّلنا وسرعان ما لفت « سبت » نظرى إلى شىء مطروح على الأرض ، فحقّقت فيه فوجدت نحواً من خمس مناديل ممزقة ، فنظرت إليه متسائلاً فقال :

ــ « إنها المناديل التى قيّدت بها الخادمة العجوز . . . »



ربطنا أرسان الجوادين إلى بعض الشجر ، وتقدّمنا فاجتزنا الباب وكان مفتوحاً، وانتهينا إلى الغرفة التى أكلنا فيها وشربنا ليلة أمس ، فرأينا الزّجاجات الفارغة لا تزال متناثرة فى أنحاء الغرفة ، ورأينا المائدة لا تزال كذلك على ما تركناها عليه، فتوجّهنا إلى القبو وكان بابه مفتوحاً على مصراعيه ، فجرينا إلى الغرفة التى حبس فيها « سبت » الخادمة العجوز فكانت خالية خاوية، فغادرناها إلى الغرفة التى أنزل فيها الملك فكان بابها موصداً فقلت :

— « هذه علامة حسنة . . . »

وهمّ « سبت » بأن يجيبنى ولكنّنى سمعته يقذف من فيه الشتائم واللعنات، ورأيت وجهه قد اصفرّ وامتُقع ، ويده تشير إلى أرض الغرفة . فنظرت حيث أشار، فرأيت خيطاً من الدم المتجمّد يخرج من تحت الباب ، فاندفعت إلى الباب أريد أن أفتحه فوجدته مقفلاً فصاح « سبت » :

— « أين إذن يوسف الخادم؟ فصحت أنا :

— « بل قل أين الملك ؟ »

وطفقت أعالج الباب حتى فتحته ، فدخلت مسرعاً إلى الغرفة فى حين بقى « سبت » سانداً ظهره إلى الجدار ، وهو يضطرب كلّ الاضطراب ، ويخشى أن يدخل الغرفة خوفاً من أن يرى مولاه جثة هامدة. ثم رأيته قد أهاب بشجاعته ولحق بى ، فرأينا فى إحدى الزوايا جثة رجل

مستلقٍ إلى ظهره ، مكتوف الذراعين ، مصاب بجرح بليغ فى رقبته . فحققنا فيه فإذا هو الخادم يوسف ، فأدركنا أنه لقى حتفه وهو يدافع عن الملك .

وفى تلك اللحظة سمعت « سبت » يقول بصوت مختنق :

ــ « والملك ؟ ! آه يا إلهى ! ماذا جرى للملك ؟ » فقلت :

ــ « لقد نقلوه من هنا فعسى أن لا يكون قد أصيب بمكروه ! »





٧

تخاذلتْ قوى « سبت » فطوّقته بذراعى وخرجت به من القبو إلى غرفة المائدة ، وجلسنا لا نَنْبِس ببنت شفة حتّى سمعنا الساعة تدقّ الواحدة ، فاستعاد « سبت » رشده وقواه فقلت له :

— « فهمنا الآن معنى ما أراد التابع أن يقوله للدوق . أتذكر أنه قال له : " إذا كانت الأمور قد جرت كما تشتهى " يا للداهية ! ولقد عرفنا الآن فحوى البرقية التى تسلمها . . . لا شك أنه شيطان رجيم ! »

لم يجب « سبت » بشىء ، بل أخرج غليونه من جيبه ، وحشاه بالتّبغ وأخذ يدخّن وهو مستسلم إلى التفكير . فقطعت عليه تفكيره وقلت :

— « يجب أن نعود إلى العاصمة ، ونأتى منها بفرقة من الرجال الأمناء

الأوفياء ، ونعلنها حرباً شعواء على الدوق . »
واستمرّ « سبت » يفكر ثم اهتز فجأة وقال :
– « تبّاً لتلك العجوز من امرأة زنيمة . . . لقد استطاعت حينما جاؤوا يختطفون الملك أن تنبّههم إلى حيث كانت ، فكشفوا عن مقرّها ومقرّ الملك ويعلم الله أين هو الآن ؟ » فقلت :
– « لا نضيّع الوقت عبثاً . »
ورأيته ابتسم ابتسامة صفراء وقال :
– « سنُرى الدوق أننا له بالمرصاد ... هيّا بنا نعود إلى العاصمة ، فعلى الملك أن يظهر لشعبه ويستقبل زائريه . . . » فقلت :
– « أيّ ملك تعنى ؟ » فقال :
– « الملك الذى تُوِّج فى هذا الصباح . » فقلت :
– « أمجنون أنت ؟ ! » فقال :
– « أتريد إذن أن نعود إلى العاصمة ، ونذيع فى الناس سرّ هذه الملهاة أو المأساة التى مثّلناها لكى يضع الدوق حبال المشنقة فى رقابنا ؟ أتظن النبلاء والشعب يغتفرون لنا استهزاءنا بهم ؟ أتحسبهم يُخلصون لملك سَكِرَ حتى فَقَدَ الوعى عشيّة تتويجه ثم أرسل إليهم خادماً يحلّ محلّه ؟ » فقلت :
– « لقد سقَوْه شراباً مخدّراً . . . ثم إنى لست خادماً ! » فقال :
– « أقول لك الرّواية التى سيذيعها الدوق . . . »

ونهض « سبت » ووضع يده على كتفي وقال :

— « يا عزيزى ! إذا كان لك من الشجاعة ما تستطيع معه أن تظلّ حيث وضعت نفسك ، فقد يمكنك أن تنقذ الملك . . . هيّا . . . تعال واحفظ له عرشه . . . » فقلت :

— « والدوق ؟ والأنذال الذين عاونوه على خطف الملك ؟ » فقال :

— « إنهم مكرَهون أن يلتزموا الصمت وإلا كشفوا عن جرائمهم ... » فقلت :

— « هَبْهُم قتلوا الملك . . . » فقال :

— « إذن تتبوأ عرشه فأنت لا تقلّ إعراقاً عن الدوق الأسود فى سُلالة " إلفبرج " ولكن لا أظنّهم قتلوا الملك ، فسوف يُبقُون عليه ما دمت أنت جالساً على العرش . . . » فقلت :

— « ولكن سينكشف أمرى عاجلاً أو آجلاً . » فقال :

— « من يدرى؟ وكيفما كان الأمر فالوقت ثمين. هيّا إلى العاصمة. »

فتبعته دون تفكير ، غير حافل بالأخطار . وكان هو قد اندفع إلى خارج الدار ليطمئن إلى أن الجوادين لا يزالا حيث تركناهما ، فلما رأيناهما رغبت إليه فى أن أدفن الخادم يوسف المسكين ، فأبى وتمنّع ، وألححت وأصررت فقال لى :

— « الوقت أضيق من أن نقضيه فى دفن الموتى . . . وعلى كل حال فهناك من يقوم مقامك . . . انظر . . . انظر . . . »

فأجلت طرفى حيث مدّ ذراعه ، فرأيت فى ضوء القمر الباهت الذى أخذ ينحدر إلى المغيب، جماعة من الناس يبلغون الثمانية ، كان أربعة منهم يركبون الجياد ، وأربعة يسيرون على الأقدام ويحملون المعاول والمجارف، فما شككت فى أنهم من رجال الدوق أقبلوا يمحون آثار الجريمة التى ارتكبوها، وكان القوم قد صاروا على مقربة منا فقلت لزميلى :

— « ماذا لو انتقمنا ليوسف المسكين، وقتلنا واحداً أو اثنين من هذه الجماعة ؟ » فأجابنى إلى رغبتى كارهاً وقال :

— « حسن . . . اشْهَرْ مسدّسك . . . » فقلت :

— « أوثر أن استخدم السيف . . . »

وقفز كلٌّ منا إلى جواده ، وانتظرنا دقيقة أو دقيقتين فسمعنا أحد الرجال يقول للمشاة :

— « اذهبوا وائتوا به . »

فرأيناهم يدخلون جناح الصيد فهمس « سبت » فى أذنى قائلاً :

— « هيّا فالفرصة ملائمة . . . »

وانقضضنا نحن الاثنين على الفرسان الأربعة ، فأطحت رأس واحد منهم بضربة سيف ، فبرز لى عملاق عن يمينى وآخر عن شمالى، فأغمدت سيفى فى صدر أوّلهما ، وأردت أن أسحبه فامتنع علىّ فتركته مغمداً فى صدره ، ونفرت بجوادى لأكون بعيداً عن متناول الفارس الذى كان إلى

شمالى ، فأدركت « سبت » وكان قد جندل خَصْمه برصاصة واحدة ، وكرّ راجعاً إلىّ . فلما رآنى طائراً نحوه ، استدار بجواده وأشار إلىّ أن ألحق به ففعلت ، وانهالت وراءنا طلقات النار فكنّا أبعد من أن تصيبنا .

وشعرت عندئذ بألم شديد فى سَبّابة يدى اليمنى ورأيت الدم يتدفّق منها فقد كنت أصبت فيها بجرح بالغ ، فتحاملت على نفسى حتّى قطعنا شوطاً بعيداً من الطريق ، فوقفنا وترجّلنا لنأخذ قسطاً من الراحة فضمد « سبت » جرح أصبعى وسألنى :

— « ترى هل عرفك القوم ؟ » فقلت :

— « عند ما أغمدت سيفى فى صدر العملاق سمعته يقول : الملك ! » فقال :

— « سيتداول القوم الخبر ويبلغ الدوق فتملكه الحَيْرَة . . . »

وعُدْنا إلى جوادينا فركبناهما ، وما زلنا نطوى المسافات طيًّا حتّى طلعت الشمس ، فوصلنا إلى العاصمة فى نحو الساعة الثامنة ، ووجدنا باب المدينة مفتوحاً كما هى العادة يدخل الناس منه ويخرجون ، فما كان يقفل إلا عند ما تأخذ الدوق لَوْثَة من الجنون ، أو شرٌّ مُبيَّت فيصدر أمره بإغلاقه .

واخترقنا الشوارع حتّى بلغنا الباب الخلفى للقصر ، فوجدنا الرجل الذى

كان قد أحضر لنا الجوادين لا يزال ينتظرنا ، ففتح لنا الباب واجتزنا الرّواق وكنا بعد دقائق فى مخدعى أو فى مخدع الملك .

واستدعيت « فرتز » فأقبل مهرولاً فلم يكد يرانى حتى خرّ ساجداً أمامى وهو يقول :

ـ « شكراً لله وحمداً ! شكراً لله على سلامتكم يا صاحب الجلالة ! »





٨

أنهى إلىّ « سبت » بما يجب علىّ أن أفعله وأنا أتناول معه طعام الإفطار ، وأطلعنى على ما يحبّ الملك وما لا يحبّ من طعام وشراب ، ثم جاءنى وزير الدولة وقضيت معه ثلاث ساعات وأنا أصرّف شؤون الدولة ، وكان جرح إصبعى عوناً لى على الامتناع عن التوقيع فاكتفى الوزير بأن أرسُم صليباً فى مكان التوقيع ، ويوقّع هو تحته مستنداً فى ذلك إلى حادثة من هذا القبيل كانت قد جرت لبعض ملوك « روريتانيا »

واستقبلت فى المساء بعض السّفراء والكبراء ، فقمت بمهمّتى على خير وجه كما لو كنت تمرّست بالمُلك والسلطان زمناً طويلاً .

ولم أتنفّس الصُّعَداء إلا عند ما خلوت فى آخر النهار إلى « سبت »

و « فرتز » وأنهيت إليهما أنى فى حاجة شديدة إلى الراحة فقال « فرتز » مضطرباً :

ــ « علينا أولاً أن نتخلّص من الدوق الأسود . . . فثلاثة من الستة موجودون فى العاصمة . » فقال « سبت » :

ــ « أصحيح ما تقول ؟ ثلاثة فقط ؟ » فقال « فرتز » :

ــ « كلّ الصحة ! » فقال « سبت » :

ــ « هذا دليل على أن الملك حيٌّ يُرْزَق ، فالثلاثة الآخرون يحرسون الملك . » فقلت وقد ضِقْت ذرعاً :

ــ « بحقّ السماء إلاّ قلتما لى من هم هؤلاء الستة الذين تتحدثون عنهم ؟ » فقال « سبت » :

ــ « إنهم ستة رجال فى خدمة الدوق الأسود ، وهم أطوع له من بنانه : ثلاثة منهم من هذه البلاد هم " روبرت هنتزو " زعيمهم و " لونجرام " و " كرافستاين " والرابع فرنسى يدعى " دى جوتل " والخامس بلجيكى يدعى " برسونان " أما السادس فإنجليزى يدعى " رتشارد " وهو مستعدٌّ أن يَقْتُل أو يُقْتَل فى سبيل الدوق الأسود . . . فمن منهم هنا يا " فرتز " ؟ » فقال « فرتز » :

ــ « الأجانب . » فقال « سبت » :

ــ « حسن . . . إن غداً لناظره قريب . »

وكان « سبت» لا يقل عنّى تعباً وإعياء، فقرّ قرارنا على الإخلاد إلى النوم والراحة، واستيقظت فى صباح اليوم التالى نشيطاً مجدّد القوى، وكنت آليت على نفسى ما دام الملك فى أمان، أن لا أصارح الدوق بالعدوان بل أحاول أن أكسب إلى صفّى رجاله وطبقة الشعب الموالية له. فخطر لى بعد ظهر ذلك اليوم أن أركب جوادى وأجول فى المدينة، فاصطحبت معى « فرتز» وكنت أردّ على التحية بأحسن منها. ووقفت فى بعض الأزقّة لأشترى باقة من الورد من إحدى البائعات فنفحتها بقطعة من الذهب.

وحدث ما توقّعت، فتألب من حولى الناس وهم يهتفون لى ويصفّقون، وسرْت فى ذلك الجمع الحاشد إلى قصر الأميرة « فلاڤيا » فزاد هتافهم وتصفيقهم لأنهم كانوا يُنْزِلون الأميرة من قلوبهم منزلةً رفيعة. وكنت قد علمت من وزير الدولة أن لا سبيل إلى كسب ثقة الشعب ومحبته إلا عن طريق الأميرة.

كانت المهمّة شاقّة فليس من السهل أن ألعب بالنار دون أن أحترق، فاستقبلتنى الأميرة استقبالاً حسناً، ونظرتْ إلى ذلك الجمع الغفير الذى كان يتبعنى إلى قصرها فقالت لى:

— « أراك تكسب أكاليل الفوز والغار ... إن تاج المُلْك الذى لبستَه قد بدّل من شأنك وغيّر ... »



وترامت إلينا وهى تتكلم، ضجّة فى الشارع ، فخفّت الأميرة إلى النافذة وعادت تقول :

— « إنه هو . . . إنه الدوق . . . فهل أسمح له بالدخول ؟ » فقلت :

— « لا شك فى ذلك إذا كنت ترغبين . . . » فقالت :

— « إنك لغريب الأطوار يا " رودلف " فأنت تعلم أنه لا يُسْمَح لأحد بزيارتى عند ما تكون إلى جانبى . » فقلت :

— « إنها عادة حميدة وكنت قد نسيتها ، ولكن لا بأس فى التجاوز عنها وأرى أننا قد أطلنا على أخى الانتظار . . . »

فنهضتُ واندفعتُ إلى الباب ففتحتُه ، ومشيتُ إلى وسط الغرفة التى كان فيها الدوق فرأيته عابس الوجه جالساً إلى مائدة والناس وراءه وقوف ، فوثب واقفاً فصافحته وأدخلته معى إلى مخدع الأميرة وأنا أقول له :

— « لو كنتُ عرفتُ يا أخى العزيز أنك هنا لما تركتك تنتظر دقيقة واحدة ، ولطلبت من الأميرة السّماح لك بزيارتها فى الحال . »

فشكرنى فى جفاء وبرود ، وإن كان يحاول أن يوهمنى أن خديعتى قد انطلت عليه، وأنه يعتقد أنى أنا الملك الحقيقى . فجلسنا نتحدّث فأطنبت فى الثناء على النظام الرائع الذى وضعه ليوم التتويج ، كما أسهبت فى شكره على حسن ضيافته إياى فى جناح الصيد . وكأنما ضاق صدره بمثل

هذا الكلام، فنهض مستأذناً فى الانصراف ، فلما وصل إلى الباب التفت إلىّ وقال :

ــ « فى البهو ثلاثة من أصدقائى يرغبون فى أن يتشرّفوا بتقديمهم إلى جلالتكم . »

فسارعت إليه، وتأبّطت ذراعه ، وخرجت معه إلى بهو الانتظار على ذلك الوضع من الود والمحبة بين شقيقين متحابّين ، فأشار إلى بعض الناس فتقدم ثلاثة رجال إلينا فقال :

ــ « أقدّم إلى جلالتكم ثلاثة من أصدقائى هم أكثر الناس ولاءً وإخلاصاً لجلالتكم . » فقلت :

ــ « يسرّنى أن أعرفهم وأعرف فيهم هذه الصفة التى تقدّمهم بها إلىّ . » فاقترب منى الواحد بعد الآخر وقبّلوا يدى فى انحناءة طويلة . وكانوا الأجانبَ الثلاثة فى عصابة الدوق الستة . وبعد أن فرغت منهم ومن أخى الدوق رجعت إلى الأميرة وكانت تنتظرنى عند الباب ، فصافحتها مودّعاً فقالت بصوت منخفض :

ــ « أرجوك يا عزيزى " رودلف " أن تكون حذِراً فطِناً . . . أنت تعرف ما أعنى . . . تذكرْ أن حياتك غالية وأنك مدين بها إلى . . . »

فقلت :

ــ « مدين بها إلى ؟ . . . » فقالت :

– « بلادك . . . » فقلت :

– « إلى بلادى فقط؟ . . » فقالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الورد :

– « إلى أصدقائك أيضاً . . . » فقلت :

– « إلى أصدقائى ؟ . . . » فقالت بصوت يشبه الهمس :

– « وإلى ابنة عمك . . . خادمتك المطيعة . »

وكاد هذا الشعور السَّمْح من جانب الأميرة يخنقنى ويكتم أنفاسى ، فودّعتها وانصرفت ولقيت « فرتز » يغازل خطيبته الكونتس « هلجا » وصيفة الأميرة فودّعها ولحق بى . . .





٩

قضيت أياماً نُبْت فيها مناب الملك الحقيقى ، واطّلعتُ على أسرار الدول وأسرار الناس ، ولم تخلُ هذه الأيام من أخطاء ارتكبتها ولكن كنت أتداركها بكثير من اللباقة والشجاعة ورباطة الجأش . ولعل شبهى الغريب بالملك هو الذى سهّل مهمتى فلم ترْقَ إلىّ الشكوك والرّيب .

دخل « سبت » يوماً علىّ وفى يده رسالة فقال :

– « هذه رسالة موجهة إليك . . . إنها من سيدة . . . ولكن عندى ما أقوله لك قبل أن تفضّها . » فقلت :

– « ماذا ؟ » فقال :

ـ « الملك فى قصر " زندا " » فقلت :

ـ « وكيف عرفت ذلك ؟ » فقال :

ـ « إن وجود ثلاثة رجال من عصابة الدوق الستة هناك كان دليلى على أن أعلم ما علمت ، فضلاً عن أن الجسر المؤدى إلى القصر مرفوع دائماً ، وما من أحد يدخل القصر إلا بإذن من الدوق نفسه أو من " روبرت " زعيم الستة . . . » فقلت :

ـ « وما خطتك ؟ » فقال « سبت » :

ـ « يقترح " فرتز " أن نهاجم القصر بعدد كبير من الفرسان والمشاة ورجال المدفعية . . . ولكن ذلك لن يجدى نفعاً ! » فقلت :

ـ « سأذهب إلى " زندا " » فقال :

ـ « هل جُننت ؟ » فقلت :

ـ « كلا ، غير أنى أود أن أنتهى من تمثيل الرواية التى أمثّلها ، فحيثما ذهبت أرى نفسى محاطاً بنفر من الجواسيس ! » فقال :

ـ « أعرف ذلك وأنا الذى أطلقهم وراءك حرصاً على حياتك ، فموتك يفيد الدوق فائدة كبيرة . » فقلت :

ـ « أتحسبنى عاجزاً عن الدفاع عن نفسى ؟ » فقال :

ـ « كلا ، ولكنى أوجس شرًّا من هؤلاء الثلاثة الموجودين فى العاصمة ، فكلٌّ منهم مجرم أثيم ، وكلٌّ منهم يتحيّن الفرص لاغتيالك . . . إليك الرسالة فمَنْ هى ؟ »

فضضت الرسالة وقرأتها بصوت عال فإذا فيها ما يلى : « إذا رغب الملك فى الوقوف على أشياء يهمّه الوقوف عليها ، فليسترشد بهذه الرسالة . فى نهاية الشارع الكبير منزل تكاد تخفيه حديقته الواسعة . وبابه الكبير يعلوه تمثال حوريّةٍ من حوريّات البحر ، وفى وسط سور الحديقة باب من الحديد ، فإذا دخل الملك وحده فى منتصف هذه الليلة من هذا الباب واتجه إلى اليمين ، وخطا نحو ثلاثين خطوة فسوف يرى داراً صغيرة يُصْعَد إليها بسلّم من ست درجات ، فإذا صعد السلم ودخل الدار ، فسيرى شخصاً يفضى إليه بسرّ عظيم يتعلق بذاته وبعرشه . وصاحب هذه النصيحة أحد أصدقائه الأوفياء ، ولا بدّ من أن يحضر الملك وحده ، فإن لم يلبِّ هذا النداء عرّض نفسه لخطرٍ جسيم ... وعليه أن لا يُطْلِع أحداً على هذه الرسالة إبقاءً على حياة سيّدةٍ مخلصة له ، فالدوق الأسود لا يغفر ولا يرحم . »

فقال « سبت » يعلّق على هذه الرسالة :

— « صحيح أن الدوق الأسود لا يغفر ولا يرحم ، وصحيح أيضاً أنه يستطيع أن يُمْلى مثل هذه الرسالة . »

وكنت أشاطر « سبت » رأيه فهممت برمى الرسالة إلى سلّة المهملات لولا أنى قرأت على ظهر الصفحة الكلمات الآتية :

« إذا تردّدت فاستشر الكولونل " سبت " واسأله من تكون السيدة

التى تقدم على كل شىء لكى تحول دون زواج الدوق من ابنة عمه، اسأله عن اسمها يخبرك أنه يبتدئ بحرف أ »

فوثبت من مقعدى وصحت :

— « أنطوانيت دى موبان ! » فقال « سبت » :

— « وكيف تعرف هذا ؟ »

فأخبرته بكل ما أعلم عن هذه السيدة . فهزّ رأسه وقال :

— « علمت أنهما على غير وئام فى هذه الأيام ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون هو مَنْ أملى هذه الرسالة . » فقلت :

— « هذا رأيى أنا أيضاً ، ولكننى سأذهب إلى الموعد المضروب ، فقد تستطيع هذه السيدة أن تخدمنا خدمة جليلة لو شاءت . » فقال :

— « لا . . . سأذهب أنا . » فقلت :

— « تذهب إلى السور فقط . » فقال :

— « بل أدخل الدار . » فقلت محتدماً :

— « إمّا أن أذهب إلى لقاء هذه السيدة ، وإما أن أعود إلى إنجلترا . » فأذعن « سبت » مستسلماً ، وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين كنت أنا و « سبت » راكبين جوادينا فى طريقنا إلى ذلك المنزل ، وبقى « فرتز » فى القصر ولم نخبره إلى أين نحن ذاهبان .

وصلنا إلى الباب الصغير فتركت « سبت » ينتظرنى عنده ،

ودخلت والمسدس في يدى واتجهت إلى اليمين مارًّا بحديقة مهملة . وكان الظلام حالكاً ، والسكون ضارباً أطنابه ، فتراءى لى بعد قليل شبحٌ ضخم فكان المنزل .

صعدت درجاته الست ، ودفعت الباب وكان مفتوحاً ، فلم أكد أتخطّى العتبة حتى خفضت إلىّ سيدة أمسكت بيدى وهمست فى أذنى : « أقفل الباب » فأطعتها وسلّطت عليها نور مصباح الجيب الذى كان معى فإذا هى السيدة الجميلة « أنطوانيت دى موبان »

ورأيتنى معها فى غرفة تكاد تكون عارية من الأثاث إلا من بعض الكراسى ، ومن منضدة حديديّة كالتى توضع فى الحدائق أو على أبواب المطاعم فقالت لى :

—«لا تَفُهْ بكلمة فالوقت ضيّق ... أنا صاحبة الرسالة إليك يا سيد " راسنديل " كتبتها بعد أن أملاها علىّ الدوق . » فقلت :

— « ما شككت فى ذلك ! » فقالت :

— « بعد عشرين دقيقة سيحضر إلى هنا ثلاثة رجال ليغتالوك . » فقلت :

— « ثلاثة . الثلاثة ؟ » فقالت :

— « نعم . ويجب أن لا تنتظرهم وإلا فموتك محقّق . » فقلت :

— « ما لم أنتصر عليهم . . . » فقالت :

— « أصْغِ إليّ . . . خطتهم أن يقتلوك وأن يرموا بجثّتك فى بعض الشوارع المريبة فى العاصمة ، ليوهموا الشعب أن الملك قتل فيها ثم يلقى الدوق القبض على أصدقاء الملك وفى طليعتهم الكولونل " سبت " والضابط " فرتز " ويعلن الأحكام العرفية ويبعث إلى رجاله الثلاثة المقيمين فى قصر " زندا " أن اقتلوا الملك ، ثم يستولى على العرش أو يمهّد إلى ذلك بتزوّجه الأميرة فهل فهمت ؟ » فقلت :

— « إنها مؤامرة محبوكة الأطراف . . . ولكن لماذا تتطوّعين أنت يا سيدتى . . . » فقاطعتنى قائلة :

— « ظنّ ما تظنّ ... فلست أطيق أن أرى الدوق يتزوّج الأميرة ، فانصرف الآن واذكر أنك دائماً فى الليل وفى النهار معرّض للخطر ، فاذهب الآن وعجّل . . . ولاتخرج من الباب ،بل اتّجه إلى ناحية باب السور ، فستجد هناك سلّماً ، فتسلّق السور واهرب . . . » فقلت :

— « وأنت ؟ » فقالت :

— « دعنى وشأنى ولا تضيّع الوقت ، فسأقول للدوق إنك لم تحضر وأنك قد تكون عرفت الحيلة . »

فقبّلت يدها وقلت لها :

— « سيدتى ، لقد أسديت الليلة إلى الملك يداً بيضاء ، ففى أى جانب من جوانب قصر " زندا " حبسوا الملك ؟ » فقالت همساً :



— « إنّ وراء الجسر باباً ضخماً ووراء هذا الباب . . . صه . . . إنى أسمع وقع أقدام . آه يا إلهى ! لقد أقبلوا قبل الموعد . »

واصطبغ وجهها بصُفْرة الأموات فقالت لى وهى ترتجف :

— « أطفئ مصباحك وانظر من شقّ الباب فهل تراهم ؟ »

فألصقت عينى بشقّ الباب ، فرأيت عند الدرجة الأولى من السلم ثلاثة أشباح ، فجرّدت مسدّسى وسمعت أحدهم يقول بلهجة إنجليزية صافية :

— « يا سيد " راسنديل " ! »

فلم أجب فعاد يقول :

— « عند ما نحدّثك به فهل تعِدُنا بأن لا تطلق النار قبل أن نفرَغ من الحديث ؟ » فقلت :

— « أعدكم أنى لن أكون البادئ بإطلاق النار . . . فماذا تعرضون علىّ ؟ » فقال المتحدث :

— « جواز أمان يوصلك إلى الحدود ، ومليونان من الفرنكات بعملة إنجليزية . » فقالت السيدة هامسة :

— « لا تقبل . إنهم خوَنة . » فقلت :

— « عرض سخىّ ولكن اتركونى أفكّر . . . »

وكنت لا أزال أراقبهم من شقّ الباب ، فرأيتهم قد وصلوا إلى الدرجة

الأخيرة فأدركت أنهم قد قرروا فيما بينهم أن يهجموا عليّ حالما أفتح لهم الباب ، فالتفتّ إلى السيدة « أنطوانيت » وهمست فى أذنها :

– « التصقى بالجدار ولا تكونى فى خطّ النار ! » :

وأمسكت منضدة الحديد من قائمتيها ، وكان ذلك أمراً سهلاً على رجل فى مثل قوّتى ، واتخذتها درعاً تقى رأسى وصدرى ، ثم شككت المصباح فى حزامى واستوثقت من مسدّسى وقلت :

– « افتحوا الباب أيها السادة ! » فقالوا :

– « افتحه أنت فإنه مقفل . » فقلت :

– «إنه غير مقفل وهو يفتح إلى الحديقة فاسحبوه إليكم . » وكنت قبل ذلك قد أدرت المفتاح فى القفل بخفة ورشاقة ، وعُدْت إلى موقفى ودرعى . فلما فتحوا الباب رأيتهم فى ضوء مصباحى متلازمين متلاصقين والمسدسات مشهورة فى أيديهم ، فدوّت فى تلك اللحظة ثلاث طلقات تداريتها بمنضدة الحديد ، ثم صحت فيهم صيحة عظيمة وهجمت عليهم بتلك المنضدة فوقعنا جميعاً إلى الأرض فى حين كانت « أنطوانيت دى موبان » تملأ الجو صراخاً .

وسرْعان ما نهضتُ واقفاً ورميتهم ثانية بالمنضدة ، وجريت إلى ناحية السور وأنا أطلق النار يميناً وشمالاً . فرأيت السلّم فتسلّقت الجدار وهبطت منه إلى الشارع ثم وثبت إلى جوادى وحذا « سبت » حذوى وانطلقنا

نخترق الشارع العريض وأنا أقهقه ضاحكاً فقال لى « سبت » متعجّباً :

– « ما الذى يضحكك ؟ » فقلت :

– « انتصارى على هؤلاء الأبالسة الثلاثة ... وبأى سلاح ؟ احزُر... بمائدة شاى . . . واعلم أنى حافظت على وعدى فلم أكن البادئ فى إطلاق النار . . . »





١٠

جرت العادة على أن يقدّم رئيس الشرطة فى صباح كل يوم تقريراً إلى الملك يضمّنه أحوال العاصمة، وموقف بعض الناس . وكان « سبت » يقرأ لى تلك التقارير .

فى صباح الليلة التى أفلتّ فيها من قبضة رجال الدوق الثلاثة كنت أنا و « فرتز » نتجاذب أطراف الحديث ، فدخل علينا « سبت » وجلس وهو يقول :

— « التقرير اليوم مملوء بالطرائف . »

وقرأ علينا ما يلى :

« سافر فى هذا الصباح سيادة الدوق يصحبه بعض رجاله ، وكان

سفره على عجل ، والمظنون أنه سافر إلى قصر " زندا " وقد ذهب إليها راكباً جواده مؤثراً إياه على قطار سكة الحديد . وبعد ساعة من سفره تبعه السادة " دى جوتل " و " برسونان " و " رتشارد " وهذا الأخير مربوط الذراع ولا يُعْرَف متى جرح ، وأكبر الظن أنه جرح فى مبارزة . كذلك غادرت العاصمة " مدام دى موبان " بسكة الحديد إلى " درسد " والمعروف أن قطار " درسد " يقف فى " زندا " .

والعاصمة مضطرمة بالأقاويل ، وكثيرون ينتقدون سلوك جلالة الملك ، فيعيبون على جلالته أنه لما يحدّد يوم اقترانه بالأميرة "فلاڤيا" ويلوح أن سمو الأميرة متضايقة من تردّد جلالته. والشعب يعدّها مخطوبة إلى الدوق على أنى لما أذعت فى الشعب أن جلالة الملك يحيى الليلة حفلا ساهراً على شرف الأميرة لهذا النبأ أطيب الأثر . »

فقال « فرتز » و « سبت » وكأنهما متفقان على ذلك :

— « عليك أن تطلب يدها الليلة فى الحفلة الساهرة . » فضحكت وقلت :

— « على رِسْلِكما أيها الصديقان! لا تلعبا هكذا بقلوب الناس ! »

وفى المساء كانت الحفلة من أبهج الحفلات ، وفى أثناء العشاء قدّمت للأميرة وسام الوردة الحمراء الذى كنت أتحلى به ، وكذلك عقداً من الألماس ومعنى هذا فى تقاليدهم أنى خطبت يدها ، فقابل الحضور هذا العمل من جانبى بعاصفة من التصفيق . وعند ما نهضنا عن المائدة وذهبت

والأميرة إلى أحد الأبهاء لنشرب القهوة سألتني :

– « أمدفوعاً بعاطفتك يا " رودلف " خطبت يدى أم نزولاً عند رغبة شعبك ؟ » فقلت بصوت مخنوق :

– « الحقّ يا عزيزتي أنى أحبّك حبًّا لا مزيد عليه . » فقالت :

– « وأنا أيضاً يا " رودلف " أحبك حبًّا جمًّا ، ولا أكتمك أنى عرفت هذا الحب من يوم تتويجك . » فقلت :

– « افرضى أنى لست الملك أكنت تحبينني مثل هذا الحب ؟ »

وبرز الكولونل « سبت » فى هذه اللحظة وانحنى أمامى وهو يقول :

– « مولاى إن نيافة الكردينال يودّ أن يستأذن فى الانصراف . »

وتلاقت نظراتنا فقرأت فى عينيه كلمات العتاب والنصح ، أتراه سمع حديثنا ؟ وخرجت إلى البهو المزدحم بالمدعوّين فصافحني الكردينال مودّعاً داعياً لى بالعزّ والتأييد .

وارفضّ السّامر وانتهى الحفل ، ووجدتني فى مخدعى مع الكولونل « سبت » فقلت له :

– « لقد فهمت معنى نظراتك ، ولكن مكره أخاك لا بطل ، فالموقف أصبح حرجاً ولا بدّ من أن نختم فصول هذه الرواية . . . فناشدتك الله إلا ذهبنا إلى " زندا " وسحقنا الدوق وأعدنا الملك إلى عرشه وشعبه وخطيبته ! » فقال « سبت » :

– « سنذهب إلى " زندا " »

فسُرِّى عنى ، وبت أنتظر اليوم المناسب للذهاب إلى تلك المدينة وتصفية الحساب مع الدوق الأسود .

وفى ضحى النهار رأيت قدمىّ تقودانى إلى قصر الأميرة « فلافيا » فقابلت الكونتيس « هلجا » فى الحديقة وكانت تقطف بعض الأزهار لسيدتها فجرت تنبىء الأميرة بقدومى. وما هى إلا دقائق قليلة حتى كنت أنا والأميرة نتحدث فى مختلف الشؤون ، فأطلعتنى على رسالتين تلقتهما فى ذلك الصباح : الأولى من الدوق يدعوها لقضاء بضعة أيام فى قصر « زندا » جرياً على عادتها فى ربيع كل عام عند ما تكون الطبيعة مؤنقة مزدهرة . والثانية كانت غفلاً من الإمضاء ولكن عند ما قدمتها الأميرة إلىّ فوقعتْ عينى على الخط فيها عرفت أنها من « مدام دى موبان » فقد جاء فيها :

« ليس هناك أى سبب يدعونى إلى محبتك ، غير أننى أدعو الله أن ينقذك من قبضة الدوق الأسود ، فلا تقبلى أية دعوة يوجهها إليك ، ولا تذهبى إلى أى مكان من الأمكنة دون حرس ، فكتيبة بأسرها لا تكفى لحراستك ، وإذا استطعت فلا تخفى أمر هذه الرسالة عن الجالس على عرش "روريتانيا" » .

فلما فرغت من القراءة قالت لى الأميرة :

— « ولماذا لم تقل صاحبة الرسالة : "الملك" بدلاً من قولها : "الجالس على عرش روريتانيا" » فقلت :



— « أطلب إليك يا أميرتى بحقّ كل عزيز عليك أن تذعنى لمضمون هذه الرسالة، فسأصدر اليوم الأوامر المشدّدة لحراسة قصرك ، فعدينى أن لا تخرجى منه إلا محاطة بكوكبة من الحراس . » فقالت فى شبه ثورة :

— « أهو أمر يصدره إلىّ جلالة الملك ؟ » فقلت :

— « أجل إنه أمر ستطيعينه إذا كنت تحبّينى . . . فالتمسى أى عذر شئت ولا تذهبى إلى "زندا" » فقالت وقد بدت على شفتيها ابتسامة جميلة :

— « أتحسّ من نفسك القوة لمقاومة الدوق الأسود ؟ ! » فقلت :

— « إنى كفيل بمقاومة جيش من الرجال فى سبيل سلامتك ! »

ثم ودّعتها وانصرفت ،وعرّجت فى طريقى على المارشال « ستراكنز » فقد كنت لمست منه جوانب طيّبة فى الوفاء والولاء ، فأطلعته على طرف مما يدور فى خلَدى ، وطلبت إليه أن يشدّد الحراسة على قصر الأميرة ، ولا يدع أى رسول من رسل الدوق يقابلها على انفراد . فنظر إلىّ ذلك الشيخ الوقور نظرة طويلة ثم قال :

— « مولاى إنك ترمى القفّاز فى وجه أخيك ! » فقلت :

— « مصلحة الوطن تقضى بذلك . . . ثم إننى سأتغيّب عن العاصمة بضعة أيام ،وسأبعث إليك فى كل يوم برسالة ، فإذا انقضت ثلاثة أيام ولم تتلقّ منى شيئاً ، فعليك أن تعلن فى المدينة أنى أقلْتُ الدوق من منصب حاكم العاصمة، وعهدت إليك فى ذلك المنصب . . . وبعد ذلك ترسل إلى الدوق رسولاً يطلب منه أن يسمح له بمقابلة الملك . . . أتتمشّى

معى فى التفكير يا مارشال ؟ » فقال :

— « أجل يا مولاى ! » فقلت :

— « فإذا مرّت أربع وعشرون ساعة على طلب المقابلة ، ولم يسمح الدوق للرسول بالمثول بين يدى الملك ، فمعنى ذلك أن الملك قد مات . . . فعليك عندئذ أن تعلن خلَفَه . وأنت تعلم مَنْ يحقّ له أن يرث عرش " روريتانيا " » فقال :

— « الأميرة " فلاڤيا " فقلت :

— « أقْسِمِ لى يا مارشال أنك ستناضل فى سبيل الأميرة حتّى الممات ! » فقال :

— « أقْسِمِ وأدعو الله أن يحفظ ذاتك فيلوح لى يا صاحب الجلالة أنك مقبل على أمر خطر . » فقلت :

— « سأصطحب معى الكولونل " سبت " والضابط " فرتز " » فقال بصوت أجشّ :

— « أذاهب أنت يا مولاى فى أثر الدوق ؟ » فقلت :

— « أجل فى أثر الدوق ، وفى أثر رجل آخر مقيم فى " زندا " فقال :

— « أودّ أن أصحبك يا مولاى ، وأن أطلق الرصاصة الأولى فى سبيلك وسبيل العرش ! » فقلت :

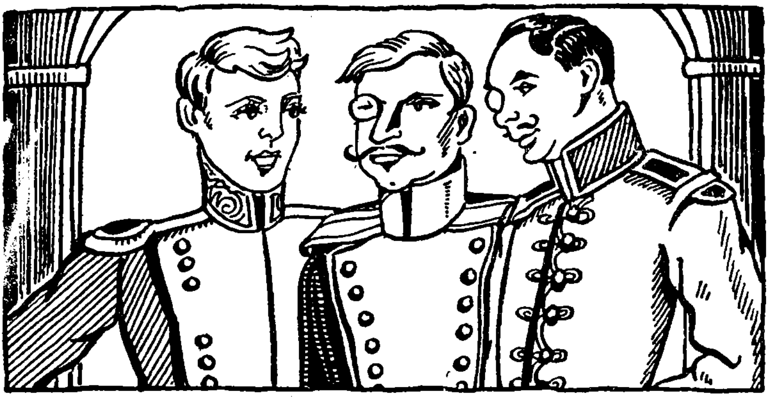
— « إنى تارك فى حراستك من هو أعزّ علىّ من الحياة . » فقال :

— « سأسلّمك الأميرة سليمة معافاة أو أنادى بها ملكة على عرش " روريتانيا " »

وافترقنا وعدت إلى القصر ، وأطلعت « سبت » و « فرتز » على كل ما حدث فوافقانى عليه ، وقرّ رأينا على الرحيل فى صباح غد بحجة الذهاب إلى الصيد .

وفى المساء ذهبت أودّع الأميرة فألفيتها غضبى من رحيلى إلى الصيد ، فما زلت أهدّئ روعها ، وأطيّب خاطرها حتى أفهمتها أنى ذاهب أقاوم الدوق فى عرينه . فزوّدتنى بالنصائح والدعوات ودموعها تنسكب على وجنتيها الورديتين ، وخرجت من لدنها وقلبى ممزّق النياط . . .





١١

كان لقريب من أقارب « فرتز » منزل فى « زندا » يبعد نحو خمسة أميال عن قصر الدوق ، وكان صاحبه لا ينزل به إلا لماماً ، فسعى « فرتز » إلى أن يستضيفنا فيه مدة أيام الصيد فى غابات « زندا » فأصدر « سبت » أوامره إلى الخدم بأن يسبقونا إلى المنزل ، فرحلوا فى الصباح الباكر حاملين معهم الأمتعة وأدوات الصيد .

وفى ضحوة النهار لحقنا بهم نحن الثلاثة ومعنا عشرة رجال أشدّاء تخيّرهم « سبت » من أوفى الأوفياء للملك ، وأنهى إليهم بشىء من غايتنا زاعماً أن الدوق قد سجن فى قصر « زندا » صديقاً حميماً للملك ، وأننا ذاهبون ننقذه من ظلم الدوق وعدوانه. وكانوا كلهم لا يحبّون الدوق فأثارت

كلمات « سبت » حفائظهم على الدوق ورجاله .

وفى أثناء الطريق فكّرت طويلاً فيما نحن مقبلون عليه ، فبدا لى أن استعمال الحيلة أجدى وأنفع ، فالدوق ليس من الغباء بحيث يصدّق أننا قادمون للصيد فى غابات « زندا » ولا شك أنه قد اتّخذ كل الأسباب لمواجهة القوة بالقوة .

فما كدنا نصل إلى «زندا» ونستقرّ فى منزل الضيافة حتى بعث الدوق إلىّ بوفدٍ من رجاله يرحّب بى ويتمنّى لى طيب الإقامة . وكان الوفد مؤلفاً من ثلاثة رجال هم القسم الثانى من عصابته ، وكان على رأسهم زعيمهم « روبرت » فاعتذر عن الدوق قائلاً . إنه لم يخفّ إلى استقبالى بسبب وعكة ملمّة به وإنه لا يستطيع أن يضع قصره تحت تصرّفى حرصاً منه على سلامتى ، فبعض رجاله مصاب فيه بمرض معدٍ ، وحالة القصر من هذه الوجهة لا تليق باستقبال أحد فيه .

وكان « روبرت » هذا وهو يتكلم لا يفتأ ينظر إلىّ نظرات ملؤها الوقاحة والتحدّى ، فتجاهلت معناها ، ورددت على تحيّته بأحسن منها ، وحمّلته إلى أخى الدوق أوفر الشوق وأطيب التحية . ولما استأذن هو وزميلاه فى الانصراف شيعتهم بمثل نظراتهم ، ووعدتهم بأن نلتقى قريباً لأزداد بهم معرفة .

تركت « سبت » فى مساء ذلك اليوم يتعشّى مع رجاله ، وخرجت أنا و « فرتز » وامتطينا جوادينا ، وسرنا إلى قلب المدينة فى « زندا » فسألنى

« فرتز » قائلاً :

— « إلى أين يا صاح ؟ » فقلت :

— « سنتعشّى فى فندق أعرفه ، فما عليك إلا أن تقول إننا رجلان من حاشية الملك ، وإن أحدنا ، وهو أنا ، مصاب بألم شديد فى أضراسه ، ولهذا سنتعشّى فى غرفة خاصة . » فقال « فرتز » :

— « ولكن الحيلة لن تنطلى على أصحاب الفندق فسوف يعرفونك . » فقلت :

— « سأتلثّم ما استطعت ، فليس المهمّ أن يعرفونى أو لا يعرفونى بل المهمّ أن تسعى أنت إلى إغراء الفتاة الشقراء بأن تقوم هى على خدمتنا . »

وصلنا إلى الفندق وكان نفس الفندق الذى كنت نزلتُ به عند قدومى إلى « زندا » فدخلناه وجلست فى أحد المقاعد متصنّعاً الألم لأخفى وجهى عن أصحاب الفضول ، فى حين كان « فرتز » يكلم صاحبة الفندق ويتقدّم إليها بطلباته .

ولم تمض علينا برهة يسيرة حتّى كنا وحدنا فى غرفة خاصة . ولقد استطاع « فرتز » بلباقته وكياسته أن يحمل الفتاة الشقراء على أن تختصّ بخدمتنا ، فأقبلت بعد قليل لتعدّ لنا المائدة فقالت لى :

— « أتتألم كثيراً يا سيدى ؟ » فأزحتُ المِعْطَف عن وجهى فتراجعت الفتاة مضطربة وقالت :

– « الملك ! لقد قلت هذا لأمى . . . إنى عرفتك يا مولاى من الصور التى نشرت لك فى هذه الأيام . » فقلت :

– « وافينا بالطعام وحذار أن تقولى لأحد إن الملك هنا . » فقالت :

– « سمعاً وطاعة يا مولاى ! »

وانفلتت وأقبلت بعد دقائق تحمل أطباق الطعام فقلت لها :

– « وكيف حال " حنا " » فقالت :

– « إنه كثير العمل فى قصر الدوق فقد عهد إليه فى القيام على خدمة سيدة عظيمة نزلت بالقصر . » فقلت :

– « أمخلصةٌ أنت للملك ؟ » فقالت :

– « كلَّ الإخلاص يا مولاى! » فقلت :

– « اطلبى إذن من " حنا " آن يقابلك فى الساعة العاشرة من مساء غد عند الكيلومتر الثانى من طريق " زندا " » فقالت :

– « ألن يلحَق به أذى؟ » فقلت :

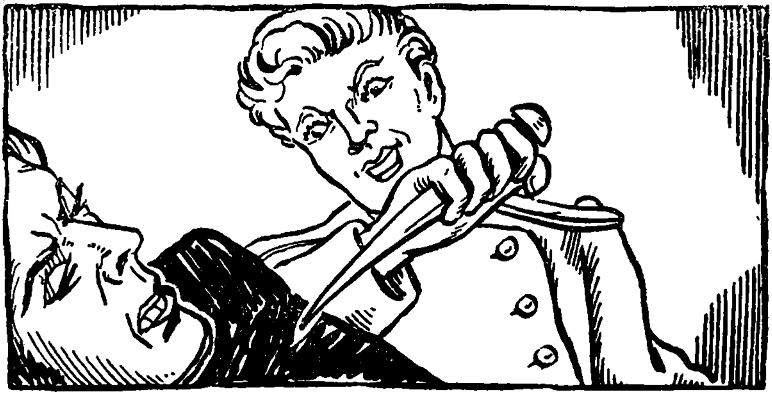
– « لن يصيبه مكروه إذا نفّذ ما يؤمر به. . . هيّا قومى أنت بما أطلبه منك ، وحذار أن يعلم أحد بقدوم الملك إلى هذا المكان ! »

فانصرفت الفتاة مضطربة متلعثمة بعد أن نفحتُها بمبلغ من المال . ثم تعشّيت أنا و« فرتز »وقمت فارتديت معْطَفِى وقنّعتُ به وجهى ، وخرجنا من الفندق وامتطينا الجوادين وانطلقنا بهما حتّى اجتزنا المدينة ووصلنا إلى المنزل الذى نزلنا به ، وكانت الساعة حوالى التاسعة فما إن سمع

« سبت » وقع حوافر جوادينا حتّى هُرع إلى استقبالِنا وهو يحمد الله على سلامتنا وقصّ عليّ كيف أن أحدرجالناخرج بعد العشاء يتمشّى قليلاً فى تلك الأرجاء، فلمح رجالاً ثلاثة متدارين وراء بعض الأشجار فأطلقوا عليه النار ، ولما كان أعزل من السلاح فقد ولى الأدبار هارباً وعاد إلى المنزل ، فلحقوه بالرصاص فأصيب فى ذراعه ، وتحامل على نفسه حتّى وصل إلينا وسقط مغمياً عليه . ثم نظر « سبت » إليّ وقال :

-- « لقد كنت أنت المقصود فالحمد لله على سلامتك ! »





١٢

استيقظتُ فى صباح اليوم التالى وملء إهابى النشاط والحماسة ، فأصدرت بعض الأوامر ، وجلست فى حديقة القصر أمتّع نفسى بأشعة الشمس وحرارتها ، وأستمع لبعض رجالى يقصّون علىّ الحكايات والنوادر . وعلى حين غرّة برز أمامنا « روبرت » اللعين ، وكأنه إبليس قد قذفته طيّات الأرض ، فحيّانى باحترام متصنّع ، وقال لى إنه يحمل إلىّ رسالة شفوية من الدوق ، ويرجو أن يبلّغنى إياها على انفراد . فأشرتُ إلى من كان حولى بالانصراف فانصرفوا ، وبقيت و « روبرت » وجهاً لوجه فقال :

– « الآن وقد أصبحنا منفردين فأصغ إلىّ يا " راسنديل " » فقلت :

– « إنك بحضرة الملك يا هذا ، فالزم الوقار الواجب وإلا أمرت رجالى بطردك شرّ طرد ! » فقال وهو ينفُضُ غُبار حذائه بقفّازه :

– « فيمَ نُطيل هذه المهزَلة يا صاحب الجلالة ... إن الدوق يعرِض عليك جواز مرورٍ إلى الحدود ، ومبلغ مليونٍ من الكورونات . . . أما أنا فلو كان الأمر متروكاً لى لما كان نصيبك منى إلا حبل المِشْنَقة . . . ، فقلت :

– « لو خيّرتُ بين العَرْضَيْن لاخترت حبل المشنقة » فقال :

– « معنى هذا أنك ترفُض عَرْض الدوق . » فقلت :

– « كلّ الرّفض ! » فقال :

– « ليكن إذن ما شئت ، فحبل المشنقة ينتظرك . » فقلت :

– « لا إخالك تحيا طويلاً يا هذا لترانى ضحيّة المشنقة . » فقال :

– « أتتحدّانى يا صاحب الجلالة ؟ » فقلت :

– « لستَ أهلاً لهذا . . . كيف حال سجينكم ؟ » فقال :

– « إنه لا يزال من الأحياء ! »

ثم نهض ومدّ يده اليمنى ليصافحنى مودّعاً ، فأبيت عليه هذا الشرف ووضعت يدىّ وراء ظهرى ، فما كان منه إلا أن جرّد خِنْجَره بيده اليسرى ، وأهوى به علىّ . فلمحت حركته ولكن فوجئت بالمباغتة السريعة ، وبجرأته المنعدمة النظير ، فقفزت إلى اليمين لأتلافى الضربة فأصابتنى فى كتِفِى ، ثم رأيته يطير بسرعة البرق إلى جواده ، ويقفز إلى

سَرْجه من بُعْد عِدّة أمتار ، وينطلق به انطلاق السّهم ، فصحْتُ برجالى فأقبلوا مسرعين ، وكأنهم أدركوا أن هذا الشيطان اللعين قد اعتدى علىّ فأمطروه وابلاً من الرصاص ، ولكنه كان قد غاب عن الأنظار .

وكان الدم يتدفق غزيراً من جرحى ، فخارت قواى وأغمى علىّ ، ولم أصْحُ إلا فى المساء ، فرأيت « فرتز » جالساً إلى جانب سريرى ، فضمّد لى جرحى ثانية واستسلمت إلى الرُّقاد .

وفى الصباح أخبرنى « فرتز » أن « حنا » حارس غابة الدوق قد وقع فى الفخ الذى نُصب له ، وأنهم قبضوا عليه وقادوه إلى هنا ، ولكن يلوح عليه أنه غير مستاء من أسره . فعلّلت النفس بالاستفادة من هذا الرجل ، فطلبت أن يُحضروه إلىّ فحضر فى حراسة « سبت » .

ولقد بدا لى من حديثى معه أنه ليس بالرجل الشرّير ، وأنه يخدم الدوق عن رهبة لا عن رغبة ، فاشتريناه بالمال وضممناه إلى صفوفنا ، فعرفنا منه أن تحت القصر غرفتين منحوتتين فى الصخر ، يُنْزَل إليهما ببضع درجات فى نهاية الجسر . أما الغرفة الأولى فليس لها نوافذ وتضاء بقنديل لا ينطفىء ، وأما الثانية فلها نافذة مربّعة تُفْضى إلى الخندق المحيط بالقصر . وعلمنا أن الغرفة الأولى يحرسها ليلاً ونهاراً ثلاثة رجال من عصابة الستة ، قد أنهى إليهم الدوق بوجوب الدفاع عن الباب دفاع المستميت ، فإذا رأوا أنه أوشك يتحطّم ، وأن المهاجمين سينفُذُون منه إلى الغرفة ، فعلى « روبرت » أو « رتشارد » أن يترك زميليه مستمرّين فى الدفاع

عن الباب ، وأن يدخل الغرفة الثانية ويقتل الملك المسجون فيها . وكانوا قد سجنوه فى تلك الغرفة، وقيّدوه بالسلاسل . فسألت « حنا » :

– « وماذا يفعلون بجثته ؟ » فقال «حنا » :

– « بينما يكون اثنان منهم يستميتان فى الدفاع عن الباب ، يكون الثالث قد قتل الملك. فما عليه عندئذ إلا أن يزيح قُضْبان النافذة ، وهى قضبان متحركة، ويربط جثة الملك بأثقال من الحديد ، ويرفعه بواسطه بَكَرَة حتى النافذة فيرميه منها .

والنافذة الآن لا يتسرّب منها أىّ بصيص من النور ، لأنها مسدودة بمدخل أنبوبة كبيرة من الآجُرّ، تتّسع لجثّة رجلين ، وتنتهى تلك الأنبوبة إلى الماء الذى يملأ الخندق ، فتتدحرج جثّة الملك فى تلك الأنبوبة حتى تصل إلى الماء وتغوص فى الأعماق. وعلى القاتل أن يصيح عندئذ : " كل شىء على ما يرام" ثم ينحدر هو وزميلاه إلى الخندق بطريق تلك الأنبوبة ، فيتجاوزونه سباحة حتى الضّفّة ، وهناك يجدون نَفَراً من الرجال قد أعدّوا لهم الجياد فيركبونها ويهربون ، ثم يلحق بهم الدوق إذا سارت الأمور على غير ما يشتهى .

تلك هى خُطّة الدوق يا سيدى للتخلّص من الملك إذا رأى أن يتخلص منه ولكنه لن يعمِد إليها إلا عند الضرورة القُصْوى ، فليس من مصلحته أن يغتال الملك ما دمتَ أنت على قيد الحياة . . . فأسألك يا سيدى أن تجنّبنى غضب الدوق وانتقامه . . . »

سمعت الرجل يسرد خُطة الدوق وأنا مستلق إلى السرير، فعند ما انتهى من روايته سبح ذهني فى فضاء من الأفكار، أرجّح رأياً على رأى، وأغلّب فكرة على فكرة وحالاً على حال، وخرجت من تفكيرى إلى نتيجة واحدة لا ثانى لها: ذلك أنى سواء هاجمت القصر بقوة كبيرة أم هاجمته بقوة صغيرة، فالملك فى خطر داهم، فانتصارى الظاهر سيُفْقده الحياة فسألت « حنا »:

— « أيعرف الملك المصير الذى ينتظره ؟ » فقال:

— « أعترف لك يا سيدى أنى أنا وأخى قد قمنا ببناء الأنبوبة على مرأى من" روبرت" وإرشاده، فلما سأله الملك عن ذلك أجابه بوقاحة وصَلَف وقال له:

" إنه سُلّم يعقوب ... ألم تسمع يا صاحب الجلالة بسلّم يعقوب ... إنه المجاز الذى ينقُل الأحياء من الدنيا إلى الآخرة ... ولقد رأينا أنه لا يليق بجلالتكم إذا أردتم الانتقال إلى العالم الثانى، أن تحذوا حَذْوَ الدَّهْماء من البَشَر، فأعددنا لكم هذا الطريق لتسلكوه وتكونوا فيه بِمَعْزِل عن أنظار الجماهير ... لمثل هذا الغرض بنينا هذه الأنبوبة يا صاحب الجلالة".

إن " روبرت" هذا يا سيدى شيطان فى صورة إنسان .»

فرغ الرجل من حديثه، فرجوت « فرتز » أن يذهب به ويشدّد

الحراسة عليه ولما تواری الرجل عن نظری قلت أخاطب « سبت » :

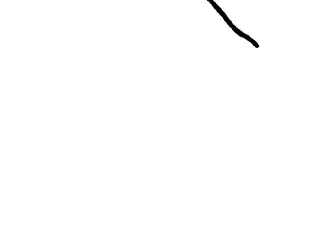
– « لا أرى غير وسيلتين نستطيع بهما إنقاذ الملك . أما الأولى فأن يخون الدوقَ أحدُ رجاله . » فقاطعنى « سبت » قائلاً :

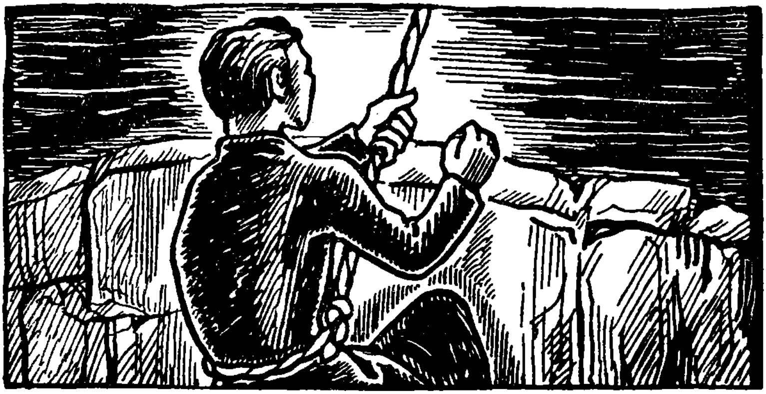
– « اطرح هذه الوسيلة جانباً فذلك محال ! . . . »فقلت :

– « إنى لأعتمد على هذه الوسيلة فهى أقرب إلى التحقيق من الوسيلة الثانية التى فى ذهنى . » فقال :

– « وما الوسيلة الثانية ؟ » فقلت :

– « مُعْجِزة من السماء ! »





١٣

أذاعت التقارير الرسمية فى طول البلاد وعرضها أنى مريض ، وأنى أصبت بجرح بالغ فى رحلة من رحلات الصيد . وكنت أنا الذى أملى النشرات الطبيّة وأهوّل فيها وأبالغ ، وأزعُم أن حالتى الصحية سيئة جدًّا . ولقد أبَيْتُ على مجمع الأطبّاء شرف مداواتى فاستاء من ذلك كلّ الاستياء ، ولم أسمح إلا لطبيب واحد كان « فرتز » يعرفه ويثق به بأن يتولى فى العَلانية معالجتى ، وفى السرّ كتمان ما لا أريد أن أبوح به .

وزاد الموقف حرجاً رسالةٌ وردت لى من المارشال يخبرنى فيها أن الأميرة « فلاڤيا » قد تملكها الجزَع على صحتى ، فهى فى طريقها إلى

« زندا » ثم زاد الطينَ بِلّة ما علمته من أن الدوق يهزأ بي ، ويعرف أني لست مريضاً ، وأني أعجَزُ من أن أستطيع مهاجمته في عُقْر قلعته .

عرفت هذا الخبر من « حنا » فقد أبدى لي من الإخلاص ما جعلني أثق به ، فأطلقت سَراحه وأنهيت إليه أن يعود إلى خدمة الدوق ويوافيني بأنبائه .

تداولت أنا و « سبت » و « فرتز » الرأي في موقفنا ، فرأينا وجوب الإسراع في العمل ، ولا سيّما أن أنباء « حنا » كانت تشير إلى سوء حالة الملك ، فالضجر والحزن والقلق كانت أنياباً قارضة تنهَش جسمه .

وفي المساء تناولت العشاء مع الأميرة « فلافيا » وكانت قد وصلت إلى ضاحية « زندا » وأقبلت توًّا إلى المنزل الذي كنا فيه ، مُصرّةً على أن تتولّى هي نفسها مداواتي وتضميد جراحي . فأشرق وجهها وتهلل لما رأتني سليماً ممتلئاً صحة وشباباً ، فلما نهضنا عن العشاء أوصلتها إلى مخدعها ، وتمنيت لها ليلة سعيدة ، وعُدْت إلى مخدعي فبدّلت ثيابي وخرجت .

وكان « سبت » و « فرتز » في انتظاري وهما مدجّجان بالسلاح ، يتخايلان على جواديهما ووراءهما ستّة من رجالنا ، قد ارتدى كل منهم شكة كاملة من السلاح واعتلى صهوة جواد أصيل . وكان « سبت » قد علّق على سَرْج جواده لفّة من الحبال ، أما أنا فاكتفيت من السلاح بهراوة غليظة وسكّين طويلة .

مشينا نحو ساعة فى منعرجات الطرُق حتى وصلنا إلى التلّ المشرف على قصر « زندا » وكانت الليلة حالكة السواد شديدة العواصف ، غزيرة الأمطار والرياح .

وهبطنا من التلّ حتى أصبحنا على مسافة ربع ميل من القصر ، فتوقّفنا وأصدرت أمرى إلى الفرسان الستة بانتظارنا فى قلب الغابة أو بالجرى إلينا إذا سمعوا صوت صفّارة « سبت » .

وتابعت السّير أنا « وسبت » و « فرتز » فبلغنا التل المشرف على الخندق المحيط بالقصر . وكان فى ضفّة الخندق شجرة باسقة فربط « سبت» بها الحبل الذى كان قد جلبه معه، فودّعت زميلىّ على كُرْه منهما ، ووضعت الهراوة بين أسنانى ثم خلعت حذائى وأمسكت بالحبل ، وانحدرت بواسطته إلى الخندق، وغرضى أن أرى سُلّم يعقوب عن كَثَبٍ . فسبحت حول جدران القصر ، ولم أكن أرى إلى أبعد من ثلاثة أمتار . وكان المبنى الحديث من القصر يسطع النور فى بعض غرفه ، وكان يطرق مسمعى بين حين وآخر قهقهة ضحك تنبعث من تلك الغرفة المنارة ، فعرفت فيها صوت اللعين « روبرت » .

ورجعت فى نفسى إلى الوصف الذى أنهاه إلىّ « حنا » عن غرف القصر ومحبِس الملك فعرفت أنى غير بعيد عن نافذة المحبِس ، فاقتربت قليلاً فى حرص وحذر ، فلمحت فى وسط ذلك الظلام شبحاً طويلاً ،



فتبيّنته فإذا هو الأنبوبة المنحدرة من النافذة إلى الماء ، ويبلغ طولها نحو متر ونصف متر ، وعرضها ضخامة رجلين مجتمعين . وكدت أقترب من تلك الأنبوبة ، ولكن حدث ما سمّرنى فى مكانى وزاد فى دقّات قلبى ، فقد رأيت زورقاً صغيراً عند نهاية الأنبوبة، وأحسست بحركة رجل يتلفّت وراءه ، فتفقّدت سكينى وغطست فى الماء ، فعثرتْ قدمى تحت الماء بشىء صلب أشبه بمبنى من المبانى ، فعلمت أنه رصيف تحت الماء يحيط بجدران القصر ، فوقفت عليه والماء لا يكاد يصل إلى صدرى ، وأخذت أخترق بنظرى ذلك الظلام الكثيف فاستطعت أن أرى رجلاً مستلقياً إلى صدر الزورق، وبجانبه بندقية تلمع فى الظلام فُوّهتها، فحبست أنفاسى فى صدرى ، وأرهفت أذنى ، فسمعت غطيط الرجل وعلمت أنه الحارس المكلف حِراسة الأنبوبة ، وأنه مستغرق فى النوم . فركعت على الرصيف الذى كنت واقفاً عليه ، وزحفت رويداً رويداً إلى مكان الرجل حتّى أصبحت منه على بعد نصف متر ، فحدّقت إليه فإذا هو « ماكس هولف» أخو « حنا » فامتدّت يدى إلى سكينى ، واقتربت منه ففتح فى هذه اللحظة عينيه ، ونظر إلىّ مذعوراً ثم تناول بندقيته فلم أمكّنه منها لأن سكينى كانت قد اخترقت قلبه .

لست أدرى أمصيباً كنت فى عملى هذا أم غير مصيب ، على أننى لم أفكر عندئذ إلا فى أن الملك يحوم حوله خطر الموت ، وأن المروءة تحدونى

إلى إنقاذه .

وتركت جثة الرجل غير حافل بها ، وتوجهت إلى الأنبوبة ، وأدخلت رأسى من فتحتها فتسرّب إلىّ بصيص من النور، وسمعت صوتاً أجشّ يقول :

– « إذا كان مولاى متضايقاً من صحبتى فإنى ذاهب عنه وتاركه يستريح . »

فعرفت فى صاحب الصوت ومن لهجته الإنجليزية أنه « رتشارد » ثم سمعته يستأنف الكلام ويقول :

– « هل يحتاج مولاى إلى شىء فأقضيه له قبل أن أنصرف ؟ » فقال الملك بصوت خافت ضعيف :

– « قل لأخى ليرحمنى وليقتلنى ولا يتركنى إلى هذا الموت البطىء! » فقال « رتشارد » متهكماً :

– « إن الدوق لا يرغب فى موتك يا صاحب الجلالة ، ففى اليوم الذى يحلو له فيه أن تموت فهذه النافذة هى طريقك إلى السماء . . . »

وانطفأ النور بعد ذلك ، فأدركت أن الوغد قد انصرف . ففكرت فى أن أنادي الملك ولكن عدت فعدلت عن هذا الرأى لأن المفاجأة ستخرجه عن وعيه فيكون بذلك هلاكه وهلاكى .

وقفزت إلى الزورق ورميت بجثة الحارس فى الماء وأخذت أجذّف حتّى وصلت إلى حيث كان « سبت » ينتظرنى ، وكان عصف الرياح

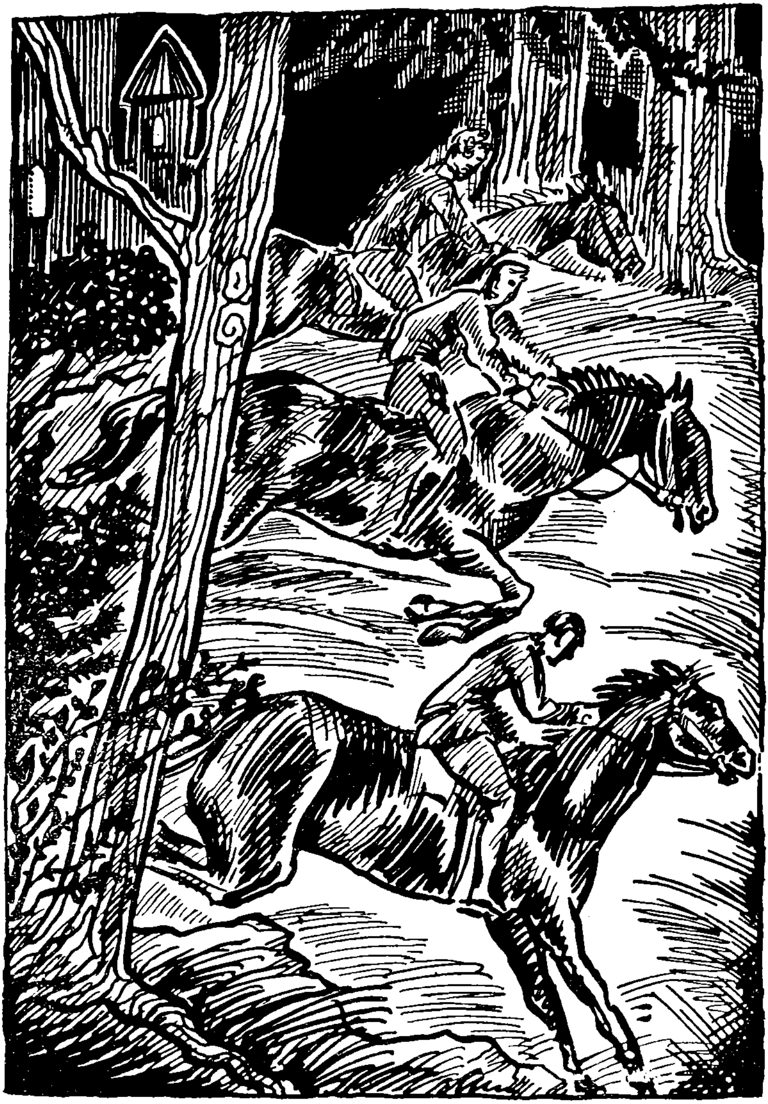
يخفى أصوات المجذاف فأدلى « سبت » إلىّ بالحبل ، وقبل أن أهمّ بتسلق الحبل سمعت صوتاً يصيح قائلاً : « ماكس ! ماكس ! » وبعد دقائق قليلة كنت على ضفـّة الخندق ، فأوعزت إلى « سبت » أن يستدعى رجالنا. ومرّ بنا فى ذلك الوقت ثلاثة فرسان كانوا مقبلين من ناحية القصر ، فرأيناهم ولم يرونا . فتوقـّفوا هنيهة عند ما سمعوا وقع حوافر الجياد وهى مقبلة تحمل على ظهورها رجالنا الستة وسمعت أنا أحدهم يقول :

— « ما أشدّ سواد هذا الليل ! »

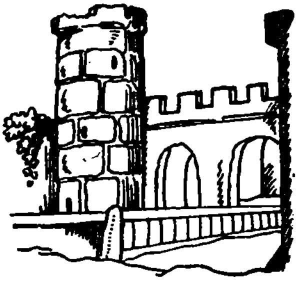
فاختلج فؤادى ولست أدرى أمن الخوف أم من الفرح ، فقد كان الصوت صوت «روبرت » الداهية . وبدأ رجالنا يطلقون النار كيفما اتفق ورفعت أنا هِراوتى لأهوى بها على رأس من كان قريباً منى من هؤلاء الرجال الثلاثة ، ولكنه عالجنى بضربة من سيفه قَدَّت الهِراوة شطرين وأتبعها بعبارة هازئة خاطبنى بها قائلاً :

— « أهذا أنت أيها الممثـّل ؟ ! »

وكان الرّصاص قد استقرّ فى جسم زميليه فطرحهما أرضاً، وكادت الدائرة تدور على «روبرت» هذا لولا أنه رأى من صواب الرأى أن يركَن إلى الفرار بعد أن أصبح وحيداً فى الميدان ولا سلاح معه غير سيفه ، فاستفاد من حَلَك الظلام ، وقفز بجواده قفزة هائلة ، وعاد إلى قصر « زندا » فى حين كان الرصاص ينهمر وراءه ولا يصيبه .



ولما رجعنا إلى أنفسنا ، رأينا زميليه « لونجرام » و « كرافستاين » جثتين بلا روح ،وخسرنا نحن ثلاثة من رجالنا ، فحزنت عليهم أشدّ الحزن وساءني أن ينجو ذلك الوغد بنفسه وأن يكسب هذه الجولة الأولى . . .





١٤

كانت المبارزة فى « روريتانيا » أمراً شائعاً فى ذلك العهد، وكان النبلاء والكبراء حتى أتباعهم يفزَعون إلى السيف والرّصاص فى فضّ منازعاتهم ، فأوعزت إلى المقربين إلىّ بأن يُشيعوا فى المدينة أن رجالى الثلاثة ورجلَى الدوق الاثنين إنما قتلوا على أثر مبارزة جرت بين هذين وأولئك ، فعزّانى الدوق عن رجالى كما عزّيته عن تابعيه ، وأصدرت بعد ذلك أمراً بتحريم المبارزة إلا لسبب خطير . فكنت والدوق ألدّ عدوّين فى الباطن ، وأصدق أخوين فى الظاهر ، وكان الجمهور هو المخدوع . . .

واتفق لى غداة تلك الليلة أن خرجت أنا والأميرة « فلاڤيا » و « سبت »

نتنزّه فى بعض البِقاع ، فمرّت بنا مركبة يقودها رجل من رجال الدولة، فلم يكد يرانى حتى وقف المركبة، ووثب إلى الأرض يحيّينى تحية جليلة ، وكان رئيس شرطة العاصمة فقلت له :

— « ما الذى جاء بك إلى " زندا " يا حضرة الرئيس ؟ » فقال :

— « جئت يا مولاى أؤدّى خدمة لسعادة سفير إنجلترا . » فقلت مجتدًّا :

— « وما شأن سفير إنجلترا فى هذه الديار ؟ » فقال :

— « لقد كُلّف أن يبحث عن مواطن له انقطعت أخباره عن أهله وأصدقائه منذ شهرين ، وهنالك أسباب تحملهم على الظن أنه قد يكون فى " زندا " » فقلت :

— « وما تلك الأسباب ؟ » فقال :

— « له صديق بباريس يزعُم أنه قد يكون فى بلادنا ، فضلاً عن أن موظفى سكة الحديد يذكرون أنهم قرؤوا اسمه على حقائبه . » فقلت :

— « وما اسمه ؟ » فقال :

— « " راسنديل " يا مولاى ! » ثم قال له بصوت خافت :

— « يقال يا مولاى إنه لحِق بسيدة تدعى "مدام دى موبان" ولعله عاشق لها ! »

فاتّجه بصرى إلى ناحية قصر «زندا » وحذا رئيس الشرطة حذوى، ثم

قال لى بصوت يشبه الهمس :

– « إن السيدة المشار إليها يا مولاى مقيمة بقصر " زندا " ولكن سيادة الدوق لا يطيق المنافسين ! » فقلت له بلهجة خطيرة :

– « إن هذا الذي تذكره يا حضرة الرئيس لعلى جانب كبير من الخطر ، وربما جرّ وراءه مشكلات دولية . . . فارجع إلى العاصمة واكتم الأمر كل الكتمان ، وأبلغ السفير أنك جادٌّ فى أثر مواطنه ، ولسوف أولى أنا هذه المسألة ما تستحق من عناية . »

وأعملت مهمازى فى شاكلتى الجواد لألحق بالأميرة و « سبت » وكانا قد تقدّمانى قليلا فسألتنى الأميرة :

– « هل أنهيت شؤونك مع الرجل ؟ » فقلت :

– « على خير ما يكون . . . أرانا قد وصلنا إلى أرض الأعداء أفلا ترغب سمو الأميرة فى العودة إلى القصر ؟ »

وكنا قد وصلنا إلى التل المشرف على قصر « زندا » فلمحنا موكباً يهبط من القصر ، فنصحنا « سبت» بالعودة ولكن الأميرة صمّمت على أن تستوضح أمر ذلك الموكب . فبقينا فى أماكننا حتى اقترب الموكب قليلاً واستطعنا أن نتبين منه الأشخاص ، فرأينا خادمين يتقدّمان مركبة تجرّها أربعة جياد ، وقد وُضع فوق المركبة نعشان مجلّلان بالسواد ، وسار وراءها فارس غارق فى ثيابه السود فقالت لى الأميرة :

– « لا شك أنهما الرجلان اللذان قُتلا فى مبارزة أمس ! »

فأرسلت بعض أتباعى السائرين وراءنا يستطلع الخبر ويعرف مَنْ يشيّعون، فسبقه إلينا ذلك الفارس المتّشح بالسواد وكان «روبرت» بعد أن أمر الموكب بالتوقف، فحيّانى تحية كلها وقار وإجلال، ولما رآه «سبت» يقترب منا لم يسعه إلا أن يمد يده إلى مسدسه فتبسّم ذلك الإبليس وقال :

– « بعثت يا صاحب الجلالة تستفسر عمّن نشيّع إنهما وأسفاه "لونجرام". و"كرافستاين" » فقلت :

– « إنى شديد الأسف يا حضرة الفارس على الحادث الذى ذهب صديقاك ضحيته، ولعل الأمر الذى أصدرته بتحريم المبارزة دليل على أسفى وحزنى . » فقالت الأميرة :

– « رحمة الله عليهما ! » فقال «روبرت» :

– « أشكر مولاى على رقة عاطفته . . . كلنا لها يا مولاى فلن يكون صديقاى هذان آخر من يموت . » فقلت :

– « تلك حقيقة يجب أن لا ننساها . » فقال :

– « نعم يجب على بنى البشر حتى الملوك أن يذكروها ! »

ولمحت « سبت» إلى جانبى وهو يكاد يتميّز غيظاً من وقاحة ذلك الشاب العجيب ، ويودّ لو يهجم عليه ويمزّقه تمزيقاً، فأنقذت الموقف وسألت « روبرت » :

— « وكيف حال أخي الدوق ؟ » فقال :

— « إن صحته فى تحسن يا مولاى بعد عدوى المرض التى سرت إليه من أحد أتباعه ! » فقلت :

— « إن اطراد التحسن فى صحته يسرّنى ويبهجنى . » فقال :

— « يأمل سيدى الدوق أن يعود بعد أيام قلائل إلى العاصمة إذا سمحت له صحته بذلك ! » فقلت :

— « أبلغه تمنياتى ودعائى له بالشِّفاء العاجل . » وزادت الأميرة على ذلك فقالت :

— « وتمنّياتى أنا أيضاً . »

فانحنى « روبرت » بإجلال ما بعده إجلال ، فأذنت له فى الانصراف فحيّا وأدار عنق جواده وسار به إلى حيث كان الموكب فى انتظاره ، فأشار إليه بالمسير . ولست أدرى الدافع الذى حدانى إلى اللحاق به فاستوقفته وقلت له :

— « إنك يا " روبرت " فتى فى مقتبل الشباب ، فالحياة تنتظرك بمباهجها ومسرّاتها ، فإن سلـّمتنى أسيركم سليماً معافى أعدك بأن أجنـّبك كل أذى وضرر ! »

فنظر إلىّ نظرة كلها سخرية واستهزاء وقال :

— « لقد كنتُ عرضت عليك عرضاً سخيًّا باسم الدوق . » واليوم

أكلمك باسمى أنا لا باسم أحد آخر ! » ثم أحنى رأسه وقال :

— « اهجموا على القصر وليقد " سبت " و " فرتز " المعركة ... فى ذلك الهجوم أتكفل أنا بقتل " سبت " و " فرتز " والدوق الأسود وبإرسال الأسير إلى جهنم بطريق سلّم يعقوب . . . أظنك لا تجهل هذا السلّم . . . فلن يبقى بعد تلك المعركة إلا رجلان على قيد الحياة : أنا " روبرت هنتزو " وأنت ملك " روريتانيا " وسكت قليلاً ثم قال :

— « إنه عرض سخىّ مشوّق أليس كذلك ؟ تظفر فيه بعرش وأميرة .. وتجعلنى رئيس وزرائك وتعترف لى ما حييت بالفضل والجميل . »

فهالتنى جرأة هذا الفتى ووقاحته ثم حيّانى وانصرف ليلحق بالموكب الذى سبقه وهو يقول :

— « فكّرْ فيما عرضته عليك . »

رجعت إلى حيث كانت الأميرة و « سبت » ينتظرانى وأنا أفكر فى هذا الفتى المعجون بالإثم والإجرام ، ثم أخذنا طريق العودة إلى القصر وأنا ساهم الوجه مبلبل الفكر ، فلم نكد نبلغ باب الحديقة حتى اقترب منى أحد الخدم وسلمنى رسالة معنونة باسمى ، ففضضتها وقرأت فيها ما يلى :

« كلفت " حنا " أن يوصل إليك هذه الرسالة . تذكر يا سيدى أنى كنت قد أخلصت لك فى النصح . فأناشدك الله وأستحلفك باسم

شجاعتك ورجولتك إلا أنقذتنى من مأوى القتلة والسفاكين .

ا . دى م . »

فدفعت بالرسالة إلى « سبت » فقرأها وهزّ رأسه وهو يقول :

– « ومن ذا الذى حملها على أن تذهب إلى ذلك المأوى ؟ ! »

أما أنا فما وَسِعنى فيما بينى وبين نفسى إلا أن أرثى لحال« أنطوانيت دى موبان » . . .





١٥

منذ اليوم الذى رآنى فيه الناس أحدّث « روبرت » وأجول فى شوارع المدينة وضواحيها، أصبح من العسير علىّ أن أدّعى المرض بعد ذلك ، وكانت العاصمة لا تنظر بعين الرضى إلى غيابى عنها ، ولكنها كانت تتغاضى عن ذلك ما دامت الأميرة ترافقنى فى ذلك الغياب ، وكان يحزّ فى صدرى أن أعرّض الأميرة للأخطار الجسيمة المحيقة بنا .

وزاد الحال سوءاً أن الدوق أصبح يتحدّانى ولا يحسب لى حساباً ، فكان يخرج من قصره، ويطوف بالمدينة ، ولا يعنى بأن يزورنى ولا أن يقدّم لى اعتذاره عن تخلفه فى أداء فروض الإجلال لأخيه الملك . فكان

لا بدّ من تجنب ذلك الموقف الشاذّ بيننا وإلا انكشف الأمر ودارت الدائرة علينا .

ولقد اضطُررت كذلك إلى أن أعلن لمارشال الدولة ورئيس الوزراء أن يوم زفاف الأميرة إلىّ قد أصبح قريباً، وكانا قد قدِما إلى « زندا » ليطلبا إلىّ تحديد الموعد تهدئة للخواطر . فضربت ليوم الزفاف موعد أسبوعين ، فكان لذلك النبأ أثره الطيب فى نفوس الشعب ، وأثره السيئ فى نفس الدوق فقد نقل إلىّ « حنا » أن الدوق لما وقف على الخبر تملكه غضب شديد فانطلق يسبّ ويشتم ولقد بلغ غضبه الذروة عند ما أنهى إليه « روبرت » أنى رجل ينفّذ ما يعد، وأنى لا بدّ متزوج الأميرة ولم يكتف بذلك بل التفت إلى «مدام دى موبان» يهنئها بابتعاد منافستها من طريقها. وروى لى « حنا » أيضاً أن الدوق لما سمع هذا الكلام من « روبرت » عمد إلى سيفه وكاد يجرّده فى وجه تابعه، ولكن هذا لم يحفل به واستمرّ يضحك ويستهزئ إلى أن أمره الدوق بالتزام الصمت .

ولم أكترث لهذا الذى رواه لى « حنا » مثل اكتراثى للشقّ الثانى من حديثه، فقد أخبرنى أن صحة الملك تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، فسَحْنَته تغيّرت ، وأعصابه تحطمت ، حتى خيف عليه من الموت فأرسل الدوق إلى العاصمة يستدعى طبيباً من ثِقاته، فلما حضر أبى أن يُقحم نفسه فى هذه المسألة ، فاضطرّه الدوق إلى ذلك ومنعه من العودة إلى العاصمة ،

وطلب إليه أن يُعْنَى بصحة الملك السجين ليكون على قيد الحياة طول المدة التي يقدّر له أن يعيش فيها حتى يحين يوم هلاكه ، فأذعن الطبيب لأمر الدوق ، وأشرك معه « مدام دى موبان » فى العناية بالملك والسهر على صحته .

التمس منى « حنا » بعد أن أطلعنى على ما يجرى فى قصر « زندا » أن أستبقيه عندى وأضمه إلى خدمى لأنه لا يأمن أن يفشو سرّه فينكّل به الدوق تنكيلاً . بيد أننى لم أجبه إلى ملتمسه وإلا فقدت به عوناً ثميناً وعيناً بصيرة . وأنهيت إليه أن يعود إلى قصر « زندا » وأن يكون فيه حذراً يقظاً ، وطلبت إليه إبلاغ « مدام دى موبان » أنى أعمل أيضاً فى سبيل إنقاذها ، راجياً منها أن تدخل على قلب الملك شيئاً من الاطمئنان إذا استطاعت ، وأن تؤكد له أن ساعة الخلاص قد قربت ، فلعل الأمل يحلّ فى قلبه محلّ اليأس فلا يهلك أسى وحزناً ولوعة .

وقبل أن ينصرف « حنا » سألته :

ــ « لقد مات رجلان من عصابة الستة فمن يقوم الآن على حراسة الملك ؟ » فقال :

ــ « اثنان يقومان على حراسته ليلاً وهما الإنجليزى والبلجيكى ، واثنان يقومان على حراسته نهاراً وهما "روبرت" و"دى جوتل" الفرنسى . » فقلت :

ـ « إذن لا يحرسه إلا اثنان ! » فقال :

ـ « نعم يا سيدى ولكن الرجلين الآخرين ليسا بعيدين منه ، فهما ينامان فى غوفة تعلو محبِس الملك فسوف ينحدران منها بسرعة البرق عند أول نداء أو أول صفير . » فقلت :

ـ « ما كنت أعرف أن فوق محبس الملك غرفة أخرى فهل بينها وبين غرفة الحارسين طريق ما ؟ » فقال :

ـ « كلا يا سيدى فيجب للوصول إلى غرفة الحارسين النزول من سلم يتألف من نحو اثنتى عشرة درجة ، ثم الخروج من الباب الذى يفضى إلى الجسر المتحرك ثم الدخول فيها . » فقلت :

ـ « وهل هذه الغرفة مقفلة ؟ » فقال :

ـ « نعم يا سيدى ، وعند كل من الحراس الأربعة مفتاح لها . » فسألته :

ـ « وأين ينام الدوق ؟ » فقال :

ـ « فى الطبقة الأولى من القصر ، فجناحه يقع إلى يمين الرّواق المؤدّى إلى الجسر المتحرك . » فقلت :

ـ « " ومدام دى موبان " ؟ » فقال :

ـ « إلى شمال الرّواق فى مواجهة جناح الدوق ، ولكن يقفل عليها الباب فى كل مساء » فقلت :

ـــ « أظن أن مفتاح جناح "مدام دي موبان" فى حوزة الدوق ! » فقال :

ـــ « نعم يا سيدي فضلاً عن أن الجسر المتحرك يُرْفع فى كل مساء وتسلم مفاتيحه إلى الدوق بحيث لا يستطيع أحد دخول القصر دون الالتجاء إلى الدوق . » فقلت :

ـــ « وأين تنام أنت ؟ » فقال :

ـــ « أنام أنا وخمسة من الخدم فى غرفة عند مدخل القصر . » فسألته :

ـــ « وهل هم مسلحون ؟ » فقال :

ـــ « مسلحون بالرماح ، فالدوق يخشى شرّهم إذا هو سلّحهم بالمسدسات أو البنادق . »

فقررت أن أبدأ العمل ، واستبعدت فكرة اللجوء إلى سلّم يعقوب ، فقد أخفقت فيه مرة فلا بدّ من اختيار هدف آخر ، ثم التفتّ إلى « حنا » وقلت له :

ـــ « لقد وعدتك بعشرين ألف كورون ، وسأجعلها خمسين ألفاً إذا قمت بما سأطلبه منك . . . هل يعرف هؤلاء الخدم من هو أسير الدوق ؟» فقال :

ـــ « كلا يا سيدى فهم يحسبونه عدوًّا من أعداء الدوق . » فقلت :

ـــ « أصغ إلىّ إذن : غداً فى الساعة الثانية صباحاً افتح الباب

العمومى للقصر . . . استنبط أى عذر كان فى سبيل ذلك . » فقال :

– « أأستطيع يا سيدى أن أهرب منه حالما أفتحه ؟ » فقلت :

– « نعم لك أن تطلق ساقيك للريح . . . خذ هذه الورقة وسلمها إلى " مدام دى موبان " وألحّ عليها فى تنفيذ ما هو مكتوب فيها فحياتنا جميعاً رهن بذلك . »

أخذ « حنا » منى الورقة وهو يرتجف من رأسه إلى أخمَص قدميه وانصرف ، ولا شك أنى جازفت فى الاعتماد عليه ولكننى كنت مكرهاً على ذلك فالوقت يمرّ سريعاً والملك قد يموت بين لحظة وأخرى .

ثم دعوت « سبت » و « فرتز » وأطلعتهما على الخُطة التى ارتأيتها فأمّنا عليها وتتلخص فيما يلى :

يذهب جماعة من رجالنا بقيادة « سبت » إلى باب القصر العمومى دون أن يراهم أحد ، فإذا طلع عليهم فى أثناء المسير فضولى أو متطفل أغمدوا خناجرهم فى صدره . وعليهم أن يصلوا إلى الباب فى اللحظة التى يفتحه لهم صديقنا « حنا » فيدخلوا منه ويستولوا على الخدم الخمسة ، وأغلب الظن أنهم لن يقاوموا . . . عندئذ يسمع فى جنح الليل صوت سيدة تستغيث قائلة : إلىّ . . . إلىّ . . . المعونة . . . المعونة . . . يا « ميكل » . . . يا « روبرت » ومما لا شك فيه أن الدوق عند ما يسمع صوت الاستغاثة فسيُهْرَع من غرفته إلى إغاثة صاحبة الصوت فيقع فى يد « سبت» وتستمر

أصوات الاستغاثة فيُنزل رجالنا الجسر المتحرك ولا بد أن يندفع « روبرت » منه إلى مساعدة حبيبته التى تناديه وتستغيث به ، وقد يكون معه « دى جوتل » أو لا يكون ، فحالما يضع « روبرت » قدمه على الجسر أبرز له وأكون قد بلغت ذلك المكان سباحة من طريق خندق الماء ومعى سلّم أسنده إلى الجسر وأقفز منه إليه وأسيطر على الموقف ، فلو مرت الأبالسة منه عندئذ لما نجت من قبضتى ، وهكذا عند ما نتخلص من « روبرت » وزميله الفرنسى لا يبقى لدينا إلا الحارسان الآخران ، ولن يصعب علينا التغلب عليهما فى تلك الفوضى التى سنُشيعها فى القصر . سنكون قد استولينا على مفاتيح محبس الملك وربما اندفع الحارسان إلى نُصْرة زملائهم فتسهل علينا المهمّة بدلاً من تحصنهما وراء الباب واضطرارنا إلى تحطيمه ، وقد يرتكب أحدهما جريمته الشنعاء فى تلك الأثناء فيقضى على حياة الملك . . .

تلك كانت خطتى ولا تخلو من حماقة وجرأة ، ولكن كانت الحال الحرجة تمليها علىّ . وكان من تتمّة الخطة أن يضاء منزلنا بالأنوار ، وتعزف فيه الموسيقى ، وتكثر الحركة إيهاماً لسكان قصر « زندا » أننا نحيى ليلة ساهرة فلا تساورهم من نحونا الرّيب والشكوك . وكنت قدّرت كذلك أنه إذا طلع الصباح ولم نعد إلى قواعدنا ، فعلى مارشال الدولة أن يزحف إلى قصر « زندا » فى أكبر قوة من الجيش ، ويطالب علناً بإطلاق سراح الملك . فإذا لم يجد الدوق فى القصر ، فعليه أن يعود فى الحال مع

الأميرة « فلاڤيا » إلى العاصمة ، ويعلن خيانة الدوق ، ويجمع رجال الدولة حول الأميرة ويجلسونها على عرش « روريتانيا » . ولقد كنت أتوقّع مثل هذه النهاية فلا أنا ولا الملك ولا الدوق ممن سيطلع عليهم الصباح وهم أحياء يرزقون . . .





١٦

كنا فى ساعة متأخرة من الليل عند ما فرغنا من تدبير خُطتنا فى رؤوس مسائلها ومختلف دقائقها ، فلما انتصف الليل خرج « سبت » برجاله واتجه إلى قصر « زندا » ليحتلّ بابه العمومى ، وكان عليهم أن يتركوا جيادهم على بعد نصف ميل من القصر ، وأن يتابعوا زحفهم إلى القصر مشياً على الأقدام بلا ضجةّ ولا جلبة ، فيصلوا إليه فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ويتأهبوا لدخوله فى الساعة الثانية عند ما يفتح « حنا » لهم الباب ، فإذا لم يفتح الباب فعلى « فرتز » أن يطوف حول القصر ، ويصل إلى حيث أكون — إذا كنت لا أزال حيًّا — لأنظر معه هل نهجم على القصر عَنْوَةً وعلناً ؟ فإن لم يجدنى فعليه أن يخفّ

إلى مسكننا ، ويوقظ المارشال ، ويطلب إليه أن يزحف برجاله إلى قصر « زندا » .

وبعد أنْ خرج « سبت » برجاله ، خرجت أنا ممتطياً صهوة جوادى ومعى مسدسى وسيفى ، وحبل لففته حول جسمى ، وسلّم حملته بيدى ، فبلغت بعد نصف ساعة نهاية الغابة ، فترجّلت وربطت رَسَنَ الجياد إلى شجرة ضخمة ، وحملت السلّم ومشيت حتّى وصلت إلى ضَفّة الخندق ، فربطت الحبل إلى جزع شجرة كانت على حافة الخندق وهبطت منه إلى الماء . وعند ما لمست قدماى الماء سمعت ساعة القصر تدقّ الثلاثة الأرباع بعد منتصف الليل ، فأخذت أسبَح وأنا أدفع السلّم أمامى ، وأطوف حول جدران القلعة حتّى بلغت سلّم يعقوب ، فوقفت على الرصيف المحيط تحت الماء بجدران القصر .

وكان الجسر المتحرك غير مرفوع وكنت أنا مستنداً إلى جدار غرفة الملك ، وعلى بعد عشرة أمتار من ذلك الجسر . ولمحت وراء الجسر نافذة فقدرت حسبما وصف لى « حنا » أنها نافذة غرفة من جنّاح الدوق ، ولمحت فى مواجهتها نافذة أخرى هى ولا شك نافذة غرفة « مدام دى موبان » ، ولم تمرّ علىّ عشر دقائق حتّى رأيت النور قد انبعث من غرفة الدوق ، وكانت فافذتها غير مُغْلقة ، فاستطعت ، وأنا فى مكانى ، أن أرى ما بداخلها . ولم تكد الغرفة يسطع فيها الضوء حتّى تبيّنت فيها شبح « مدام دى موبان » قد اقترب من النافذة ولحق بها فى الحال شبح رجل عرفت فيه

« روبرت » كان يحدثها حديثاً متواصلاً . فحمل إلى الهواء بعض كلامه ، ففهمت منه أنه يغريها بالفرار معه ، وأنه يوغر صدرها على الدوق ، ويثير فيه حفيظتها عليه ، وغيرتها من الأميرة « فلاڤيا » التى طمع الدوق فى أن يتزوجها بعد أن يقتل الملك ويقتلنى قبله ، فكانت السيدة لا تصغى إليه أو لا تقره على ما يطلب ويقترح .

وفُتح باب الغرفة فى أثناء ذلك الحديث ، ودخل منه الدوق وسمعته يقول :

— « ماذا تفعل هنا أيها السيد ! » فسمعت « روبرت » يجيب بلهجته المتهكمة ويقول :

— « كنت أروح عن السيدة وأسليها فى وَحْدتها ! » فقال له الدوق وقد اقترب من النافذة وأشار إلى الخندق :

— « إن الخندق عريض واسع ، فإذا شئتُ بعثتُ بك إلى أعماقه لتسلى جثة الملك فى وَحْدتها يوم أقرر طرحه فيه ... » فقال « روبرت » :

— « أوعيدٌ هذا يا سيدى الدوق ؟ ! » فقال الدوق :

— « إنه إنذار بمثابة الوعيد ! » فقال « روبرت » ساخراً :

— « لقد تَوَعّدتَ يا سيدِي الدوق " رودلف راسنديل " ولكنه لا يزال على قيد الحياة . . . » فكتم الدوق غيظه وقال :

— « حسن . . . ليس الوقت وقت جدال وكلام . . . زميلاك قد

تسلما الحراسة . . . وبعد عشر دقائق يُرفع الجسر ، ولا إخالك تودّ أن تذهب إلى غرفتك سباحة . . . فمع السلامة ! »

وسمعت الباب بعد ذلك يُفتح ثم يُغلق ، فأدركت أن « روبرت » قد انصرف . ثم سمعت الباب يُفتح ثم يُغلق ثانية فأدركت أن « مدام دى موبان » قد ذهبت إلى غرفتها ، وازددت يقيناً من ذلك لما رأيت الدوق يقترب من النافذة ويُقفل عارضتيها الخشبيّتين فقلت فى نفسى : ترى هل أوصل « حنا » كلمتى إلى « مدام دى موبان » ؟ وهل تقوم بما طلبته منها؟

وبينا أنا أفكر فى هذا سمعت « روبرت » وهو فوق الجسر يقول :

— « هيّا يا " دى جوتل " عجّل ! فالجسر يكاد يُرفع ! »

وسارع « دى جوتل » إلى زميله ، فتأبّط هذا ذراعه ، واجتاز الرجلان الجسر راكضين ، وما هى إلا دقائق قليلة حتى رفع الجسر وخيّم الصمت والسكون . . .

ولشدّ ما كانت دهشتى بعد قليل عند ما أحسست بحركة تنبعث من مكان قريب منى ، فدقّقت النظر فبدا لى شبح « روبرت » واقفاً فى الممر المؤدى إلى الجسر ، وبيده سيفه وقد سلّه من غمده ، فبقى كذلك نحو دقيقة أو دقيقتين ثم خطا خطوتين فى اتجاهى ، وأخذ ينزل إلى أسفل . فأيقنت أن فى الجدار درجات توصل إلى الماء ، فما إن بلغ « روبرت » الدرجة الأخيرة ، حتى وضع سيفه بين أسنانه ، وارتمى فى الماء . فخطر

ببالى أن أرتمى وراءه وأدركه وأصفّى حسابى معه ، ولكن صوت العقل أهاب بى إلى أن أرجع عما فكرت فيه ، فقد كانت غايتى أنبل من أن أنتقم لنفسى ، فالملك فى خطر وانتقامى لنفسى من ذلك الشرّير سيُحبط الخطة التى دبرناها لإنقاذ الملك ، فاكتفيت أن أتبع « روبرت » بالنظر ، وقلبى يخفق خفقاناً شديداً لأرى إلى أين يتجه ذلك الشيطان ، فرأيته اجتاز الخندق إلى الناحية الأخرى من الجسر ، وصَعِد فى درجات كانت هناك ، ولما أصبح فى الممرّ أخرج من جيبه مفتاحاً ، وفتح باباً كان هناك ، واختفى وراءه وأبقى الباب مفتوحاً . . .

رميت السلّم الذى جئت به معى ، وسبحت إلى الجسر ، وصعدت فى الدرجات المحفورة فى الجدار ، ولما بلغت إلى وسطها توقفت وجرّدت حسامى وأخذت أنصت بجميع جوارحى . . .

كانت غرفة الدوق غير مضاءة ، فما كان ينبعث من خلال نافذتها أى بصيص من نور ، فى حين كانت النافذة المواجهة لها يسطع منها الضوء فى ذلك الليل البهيم ، والسكون المخيف الذى مزّقته فى تلك اللحظة دقات ساعة البرج تعلن النصف بعد الواحدة . . .

حاولتُ أن أستشفّ الغرض الذى من أجله عاد « روبرت » أدراجه متقلّداً سيفه المسلول ، فلم أقع فى تفكيرى على خاطر أرتاح إليه ، غير أن وجوده فى غير الجناح الذى حُبِس فيه الملك بعث فى قلبى شيئاً من الاطمئنان والارتياح ، وحمدت الله على ذلك فقد نقص من حرّاس

الملك واحد ، ولا بدّ أن يكون الثانى وهو « دى جوتل » مستسلماً إلى الرُّقاد ، فلو كانت المفاتيح فى حوزتى لانقضضت على الحارسين الآخرين قبل أن يُهرع أحد إلى نجدتهما ، ولكن ما هى إلا أضغاث أحلام ، فإنى مضطرّ أن أنتظر هجوم رفاقى لكى يخرج إليهم مَنْ تكون المفاتيح فى جيبه . . . فانتظرت على أحرّ من الجمر ، وبقيت أسرّح النظر فيما حولى مدة خمس دقائق أو عشر ، وأنقله من نافذة الدوق المظلمة المقفلة إلى نافذة « مدام دى موبان » المضيئة ، ومن الجسر المتحرك إلى الباب العمومى للقصر حتّى سمعت صرير مفتاح يدار فى قفل بحَيْطة وبُطء . . . فتساءلت فى نفسى : ترى يد من تدير المفتاح ؟ وأى غرفة تريد أن تفتح ؟ فلم يطل تساؤلى ، فقبل الساعة التى يجب أن يصل فيها رفاقى إلى القصر ، وقبل الموعد الذى ضربته لصديقنا « حنا » ليفتح فيه الباب العمومى ، حدثت فى القصر ضجة كبيرة كان مصدرها غرفة « مدام دى موبان » ، فانطفأ فيها النور فجأة ، وسُمع فى وسط ذلك السكون صوت تلك السيدة تصيح وتستغيث وتقول : إلىّ يا « ميكل » ! إلىّ يا « ميكل » !

كنت أصغى بجميع حواسى إلى ما يحيط بى ، فتركت الدرجة التى كنت واقفاً عليها ، وصعدت إلى أعلى فوجدتنى فى الممر الموصل إلى الجسر ، ووجدت فى الناحية الأخرى منه تجويفاً فى الحائط يتسع لرجل واحد ، فجريت إليه والسيف فى يدى ، واختبأت فيه . وهكذا أصبحت

سيد الموقف أتحكم فى كل من يريد أن يجتاز الجسر ليذهب إلى الجناح العتيق من القصر . . .

وأعقبت الاستغاثة استغاثة ثانية ، فسمعت صوت باب يُفتح ويُغلق بشدة ، فما شككت إلا أن الدوق قد خرج من غرفته على صوت الاستغاثة ووثقت من ذلك لما سمعته يهوى بكلتا يديه على باب غرفة « مدام دى موبان » ويصيح قائلاً :

– « افتحى افتحى الباب ! »

وكان الجواب نفس الكلمات التى أمليتها على « مدام دى موبان » وهى :

– « المعونة ! . . " ميكل " ! " روبرت "

فانهال الدوق على الباب ضرباً وتحطيماً ، وهو يقذف من فيه السباب واللعنات .

وفى تلك اللحظة سمعت صرير نافذة تفتح فوق المكان الذى كنت مختبئاً فيه ، وصوتاً يقول فى قلق واضطراب : « ماذا حدث ؟ » ثم سمعت وقع أقدام مسرعة فشهرت سيفى لأنقضّ به على القادم ، وتمنّيت أن يكون « دى جوتل » فينقص عضو آخر من العصابة .

وطرق مسمعى أيضاً فى تلك اللحظة صليل سيوف ينبعث من غرفة « مدام دى موبان » ثم أعقبه صراخ رجل جريح ، وعلى الأثر فتحت

النافذة بعنف فأبصرت منها « روبرت » وقد أسند ظهره إلى النافذة، وهو يضرب بسيفه يميناً وشمالاً وسمعته يصرخ قائلاً :

ـ « أهذا أنت يا "حنا" ؟ خذ هذه الضربة أيضاً فداء سيدك . . . مالك تهرب ... والآن تعال يا " ميكل" خذ هذه الضربة ... وخذ هذه الضربة . . . »

وضح المنظر لعيني وخاطرى ، فقد سارع « حنا » إلى نجدة الدوق ولكنه نكص على أعقابه منطوياً على جراحه فأخفقت الخطة التى كنا دبرناها ، فما من أحد يفتح الباب العمومى لأصحابى ، وسمعت الدوق يستغيث ولكن بصوت خافت، ثم سمعت صوت حركة منبعثة من الممر المؤدى إلى محبس الملك، وقبل أن أتبينها رأيت خمسة رجال أو ستة قد أحاطوا بالداهية « روبرت » وهو يدفعهم عنه بسيفه الطويل، حتى إذا انتهز فرصة نكوثهم عنه قليلاً ، قفز إلى حافة النافذة ورمى بنفسه فى الماء وهو يقهقه ضاحكاً ويلوح بالسيف الذى فى يده . . .

ولم أستطع أن أتحقق من الوجهة التى سبح إليها ، فقد برز لى فى تلك الدقيقة « دى جوتل » وهو شاحب الوجه ممتقع اللون فضربته بالسيف ضربة قاضية خر على أثرها صريعاً، وانكببت عليه أفتش فى جيوبه ، فعثرت فيها على ثلاثة مفاتيح ، فجربت أضخمها فى الباب المفضى إلى القبو الذى سجنوا فيه الملك . فانفتح ، فأخرجت المفتاح ووضعته فى جيبى ودخلت على رؤوس أصابعى، فإذا بى فى ناحية سلم حجرى يضيئه

مصباح صغير معلّق على الحائط ، فوقفت أتنصّت فسمعت صوتاً صادراً من وراء الباب الذى فى أسفل السلم يقول فى شىء من القلق :

– « ماذا يحدث ؟ » فيجيبه صوت آخر :

– « هل نقتله ؟ »

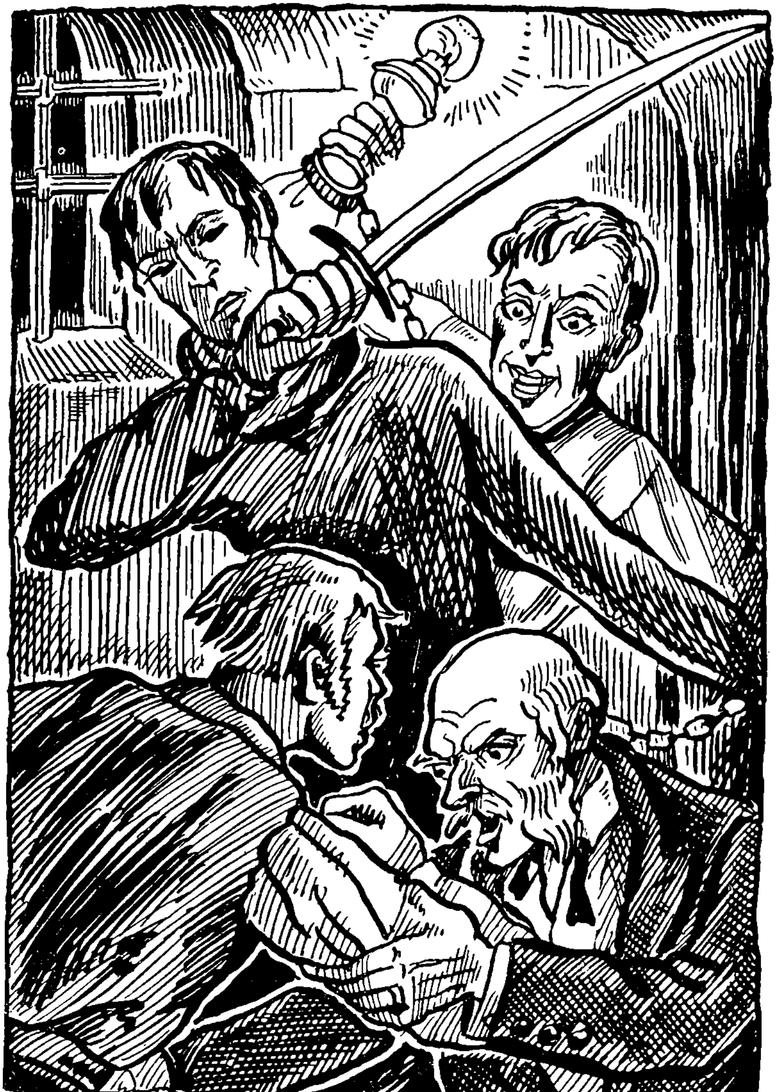
فكتمت أنفاسى لأسمع الجواب عن ذلك السؤال الرهيب ، فكدت أقفز من الفرح لما تبيّنت صوت « رتشارد » يقول بلهجته الباردة الثقيلة :

– « انتظر قليلاً فالإسراع قد يعرّضنا لوخيم العواقب ! »

وانتهى إلىّ بعد ذلك وقعُ أقدام وحركة يدٍ تدير المفتاح فى ذلك الباب الذى ينتهى عنده السلّم الحجرى ، فأطفأت المصباح الصغير وسمعت من فتح الباب يقول لزميله :

– « الظلام دامس ، والمصباح فى السلّم قد انطفأ . هات المصباح الذى عندك . »

وقبل أن أترك لهما فرصة الاعتماد على مصباحهما الثانى ، هبطت درج السلّم هبوط الصخر المتدحرج إلى الهاوية ، وانقضضت عليهما انقضاض الصاعقة ، فتصدّى لى « برسونان » البلجيكى فعاجلته بضربة سيف مميتة سقط على أثرها جثة هامدة ، والتفتُّ إلى زميله الإنجليزى لأُلحقه به فلم أجده ، فقد كان دخل حجرة الملك وأغلق بابها وراءه ، فأسقِط فى يدى ، وأيقنت أن الملك مائت لامحالة تنفيذاً لأوامر الدوق فى



مثل هذه الحال، فارتميت على الباب أحاول فتحه بيدى وكتفى وجسمى كله ، وما زلت أعالجه حتى انفتح فيا لهول ما رأيت :

رأيت الملك فى زاوية من الحجرة عليلا مريضاً، شاحب اللون مضطرب الأعصاب، ينظر إلى « رتشارد » وإلى طبيبه وهما يتصارعان فى وسط الحجرة، فى سبيل الملك كان الطبيب قد ألقى بنفسه على « رتشارد » ليمنعه من الوصول إلى الملك، غير أن « رتشارد » ما عتم أن نجا من قبضة خصمه، وفى الثانية التى دخلت فيها الغرفة كان قد أغمد سيفه فى قلب الطبيب ، فلما رآنى هجم على وقال :

— « جاءت نوبتك أيها الدجال ! »

فما زلنا نتبارز ونتصارع ، بالأيدى حيناً وبالسيف حيناً آخر ، ولا ينال أحد من الآخر مأرباً حتى سمعت الملك يقول :

— « يالله ! هذا ابن عمى " رودلف " ها أنا ذا يا ابن العم . . . سوف أعينك على هذا المجرم الأثيم ! »

وأمسك بيديه المرتعشتين كرسياً كان فى الغرفة ، ورفعه إلى صدره كدرع يحتمى بها ، وأقبل نحونا . فملأتنى حركته أملاً ورجاء ولا سيما أنى كنت قد جرحت فى ذراعى فصحت به :

— « تعال . . تعال . . . ارم المجرم بهذا الكرسى بين ساقيه . »

وأراد « رتشارد » أن يتفادى الكرسى ، فوثب إلى الملك وكال له ضربة

مميتة فتجنبها الملك بتلك الدرع ولكن ذُبابة السيف كانت قد أصابته فى جبينه فسقط إلى الأرض مغشيًّا عليه . واستدار « رتشارد » ليجهز علىّ فشاء سوء حظه أن تتزحلق قدمه ببركة الدماء التى سالت من جسم الطبيب المسكين فتعثّر ، ولم يكد ينهض حتى أغمدت سيفى فى صدره فانكبّ على جثة ضحيته جسداً بلا روح . . .

فرغت من هذا الخصم العنيد ، وهُرعت إلى الملك أجسّ نبضه ، فسرّنى أنه على قيد الحياة ، ولكن شُغلت عنه فى تلك اللحظة بما سمعته من أصوات سلاسل تعِجّ فى الخارج ، فعرفت أن أحداً من الناس قد أنزل الجسر المتحرك ، فأيقنت أن الدائرة ستدور علىّ وعلى الملك ما لم يكن مُنزل الجسر أحد رجالنا ، فاضطُررت أن أدع الملك لعناية الله وخرجت أستوضح الأمر ، فمررت بغرفة الحارسين فوجدت على الموقد مسدسين محشوّين كانت المباغتة ولا شك قد حالت دونهما لما هبطت على الحارسين ، فأخذت واحداً منهما وصعدت فى السلّم الحجرى بعد أن توقفت قليلاً لأنصت إلى ما يجرى فى الخارج ، ولأضمّد جرح ذراعى بقطعة مزقتها من قميصى .

وما كدت أبلغ ناصية السلّم الحجرى ، وأقف وراء الباب أتسمّع حتى اضطربت اضطراباً شديداً ، فقد سمعت صوت « روبرت » يقهقه ضاحكاً . يا لهذا الشيطان الرجيم ! إن ضحكه دليل على أن « سبت » ورجاله لم يصلوا وإلا كانوا قضوا على هذا المجرم الجرىء . . .

ودقّت ساعة البرج النصف بعد الثانية . . . نعم النصف بعد الثانية ومعنى هذا أن رجالنا جاؤوا فى الموعد فوجدوا الباب مقفلاً ، ثم بحثوا عنى فى ضفة الخندق فما وجدونى فعادوا إلى المارشال يعلنون نبأ موتى وموت الملك.

وبينا أنا واقف وراء الباب أستريح وأستعيد قواى ، سمعت ذلك الشيطان يصيح ساخراً متهكماً :

ـ « الآن وقد أنزل الجسر أيها الدوق الأسود فتعالَ دافع عنك وعنها . . . ألا تستحق هذه السيدة أن تدافع عنها ؟ دع خدمك الأسافل وتقدّم أنت . . . ها . ها . ها . ها . »





١٧

دفعنى الفضول إلى أن ألقى نظرة إلى الميدان رجاء أن أشترك فى القتال الذى سيدور بين « روبرت » والدوق الأسود وآخذ بثأرى من الغالب ، ففتحت الباب بلطف ولكننى لم أتبين شيئاً ، فأضواء المشاعل المنبعثة من الطرف الثانى من الجسر كادت تعمى ناظرىّ بعد الظلمة التى كنت فيها ، ثم ما لبثتْ عيناى أن تعوّدَتا الضياء فأبصرت رهطاً من خدم الدوق ، بين حامل مِشْعَل وحامل رمح ، قد تجمّعوا فى الناحية الثانية وهم ينظرون نظرة تحدٍّ وخوف معاً إلى رجل واقف فى وسط الجسر وسيفه مجرّد فى يده وكان « روبرت » . . .

وكان كلما خطا خطوة فوق الجسر إلى ناحية القوم ، تراجع هؤلاء خطوات فيضحك ويصيح مزهواً :

— « "ميكل" أيها الكلب القذِر ! تعالَ إذا كنت تستطيع الوقوف على قدميك ! » وطفق يكرر هذا حتى أجابه صوت امرأة يقول :

— « لقد مات ! آه يا إلهى لقد مات ! » فلما سمع « روبرت » هذا الجواب صاح فى الخدم صيحة الفوز والانتصار :

— « لقد مات ! اخفضوا سلاحكم فأنا اليوم سيّد القصر ! »

وكم وددت فى تلك الساعة لو بعثت ذلك الشيطان إلى الجحيم برصاصة واحدة من المسدس الذى فى يدى ، فأنقذ الخدم وأنقذ الدنيا من شروره وآثامه ، ولكن قوة خفية كانت تُمسك يدى . وزاد عليها ما سمعته فى تلك اللحظة من جلَبة بعيدة وصياح ودوىّ ، وما رأيته بأمّ عينى . فقد اتجهت جميع الأنظار إلى سيّدة مقبلة إلى الجسر ، وهى تترنّح من الاضطراب ، وفى يدها مسدس أطلقت رصاصة على « روبرت » فلم تصبه فقال لها :

— « لو لم تكن عيناك يا سيّدتى أقتلَ من رصاصك لما كنتُ الساعة فى هذا الموقف الحرج ، ولما كان الدوق الأسود الآن فى غياهب الجحيم ! » فلم تحفِل بكلامه ، وتغلبت على اضطرابها ، وصوّبت إليه المسدس ، فكان على « روبرت » إمّا أن يهجم عليها وإمّا أن يتراجع إلى الخلف



فيتلقّاه رصاص مسدّسي . غير أنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، فقبل أن تُحكم « مدام دى موبان » تصويب مسدسها إليه ، انحنى أمامها وقال لها بلهجة كلها إجلال وتوقير :

— « محال يا سيّدتى أن أقتل من أحببت ! »

ثم قفز بأسرع من البرق إلى حاجز الجسر ، ووثب منه إلى الماء قبل أن تفكّر السيدة أو أفكّر أنا فى الحيلولة دون ما يريد ، ولم ينتشلنى من ذهولى غير سماعى صوت « سبت » فى تلك الثانية يصيح قائلاً :

— « إنه الدوق . . . لقد فارق الحياة ! »

قرّرت عندئذ فيما بينى وبين نفسى أن مهمّتى قد انتهت ، وأن الملك لم يعد فى حاجة إلىّ ، فالدوق قد مات ، و « سبت » ورجاله أقبلوا يحتلّون القصر ، وليس من يعارضهم فيه أو يقاتلهم ، فعمّا قليل ينقذون الملك ويعيدونه إلى عرشه وبلاده ، فلم أجد خيراً من أن أنفر من مخبئى ، وأجرى إلى وسط الجسر ، وأثب منه إلى الماء فى أثر « روبرت » بعد أن رميت المسدس الذى كان معى واستبقيت السيف .

كان « روبرت » قد سبقنى ببضعة أمتار ، وكان يسبّح بقوة وسرعة ، فى حين كنت أسبح ببطء بسبب قواى الخائرة ، وذراعى المجروحة ، فتقدّمنى ولم يعرف مَنْ يتعقّبه ، ورأيته عن بُعد يحرّك رأسه يميناً وشمالاً كأنه يبحث عن مكان يقف فيه ليستطلع شأن السابح وراءه ، وكنت

أدعو الله أن لا يرى فى طريقه الحبل الذى كنت ربطته بجذع شجرة على ضفّة الخندق وهبطت منه إلى الماء، ولكن ما من شيء يفوت ذلك الشيطان مرآه وسارع إليه وسمعته يقول مسروراً : « أى إبليس وضع هذا الحبل هنا ؟ ! » ثم تسلّقه بخفّة الأرنب، ومضى يتوغّل فى الغابة مؤثراً الفرار على البقاء .

وصلت أنا إلى الحبل فتسلّقته، ولما أصبحت على الأرض اليابسة لمحت خياله بين أغصان الشجر ، فأخذت أناديه وأنذره بالوقوف ، فالتفت وراءه وعرفنى ولوّح لى بيده مستهزئاً كعادته، وأمعن فى الجرى حتّى غاب عن نظرى، فارتميت إلى الأرض ألهث من التعب وأستعيد قواى ، فما كدت أصيب شيئاً من الراحة حتّى استفزّنى صياح فتاة ، فجريت صوب مصدر الصوت فرأيت « روبرت » قد لقى فتاة من القرويات راكبة جواداً ومعها سلّة من الثمار كانت لاشك ذاهبة بها لبيعها فى السوق، فأنزلها من الجواد برفق ولين وأدب ، ومنحها قبضة من النقود ثم قفز إلى السرج فاستوى عليه ومكث ينتظرنى والسيف مسلول فى يده ، فلما أصبحت منه على بضعة أمتار قال لى :

– « ماذا فعلت فى القصر ؟ » فقلت :

– « قتلت ثلاثة من صحابك ! » فقال :

– « أدخلت إلى سجن الملك ؟ » فقلت :

– « نعم . » فقال :

– « والملك ؟ » فقلت :

– « لقد جرحه "رتشارد" قبل أن أستطيع قتل ذلك الأثيم ، وأرجو أن لا يكون الجرح ذا بال وأن يعيش الملك . » فقال :

– « يا لك من أحمق ! » فقلتُ :

– « وفعلتُ غير هذا . . . » فقال :

– « ماذا ؟ » فقلت :

– « حقنت دمك، فقد كان فى إمكانى أن أقتلك كما يُقتل الكلب الأجرب . . . كنت وراءك على الجسر والمسدس فى يدى عند ما أخطأتك " مدام دى موبان " » فقال ضاحكاً :

– « إذن كنت أنا بين نارين ! » فقلت :

– « ترجل الآن وقاتل كما يقاتل الرجال . » فقال وقدْ أشار إلى الفتاة القروية :

– « أمام الجنس اللطيف يا صاحب الجلالة ! »

فاستولت علىّ سورة من الغضب ، فهجمت عليه ثائراً هائجاً وكلْتُ له ضربة شديدة تفاداها بسيفه ، فلما رآنى جادًّا فى قتاله هجم علىّ بجواده وعلانى بالسيف ، فتحاشيت ضربته ببراعة لا أدرى من أين هبطت

عليّ ، وعاجلته بضربة أصابته فى خدّه ولكن تعثّرتُ بعدها فسقطت راكعاً على ركبتى ، وتوقّعت أن يجهز عليّ قبل أن أستطيع النهوض . فحال دون ما توقّعت صوت يدوّى وراءنا ، فالتفتنا كلانا إلى مصدر الصوت ، فرأيت فارساً ينتهب الأرض انتهاباً إلينا وتبيّنته فإذا هو صديقى « فرتز » فما كان من « روبرت » إلا أن أدار جواده وطار به وراء الأغصان والأشجار ولم ينس أن يودعنى قائلاً :

— « أستودعك الله يا " رودلف راسنديل " وإلى اللقاء ! »

وكذلك حيّا الفتاة تحية جميلة وكانت واقفة ترتجف وترتعش ، وحيّا « فرتز » بقبضة يده وكان قد اقترب قليلاً منا فردّ «فرتز» على التحية بطلقة من مسدسه فأصابت سيفه المسلول فرماه من يده وهو يسبّ ويلعن ويمسح الدم المتدفّق من خدّه .

أومأت إلى « فرتز » باللحاق به ، غير أنه وقف جواده وترجّل وسارع إليّ نهضنى ويمسح الدماء التى عادت تتدفق من ذراعى فقلت له :

— « أهذا أنت ياعزيزى "فرتز" ؟ والملك ؟ أهو على قيد الحياة ؟ »
فأهوى عليّ يقبّلنى ويقول :

— « نعم إنه على قيد الحياة والفضل فى هذا يعود إلى إخلاصك ومروءتك وشجاعتك ! »

هزّني هذا الخبر المفرح هزًّا عنيفاً، فهتفت بكل قواى : « مرحى ! مرحى! تباركت يا ربّ ! » ثم تغلّب عليّ الضّعْف والخورَ والبرد فوقعت بين ذراعى « فرتز » لا أعى حرَاكاً . . .





١٨

وقف القارئ على ما قمت به من أعمال فى تلك الليلة التى كان فيها قصر « زندا » مسرحاً للحوادث ، ويهمه ولا شك أن يعرف كيف تسلسلت تلك الحوادث فى الجوانب الأخرى من القصر ، فها أنا ذا أسوق إليه ما حدثنى به « فرتز » و « مدام دى موبان » .

لقد كان فى قلب هذه السيدة عاطفة صادقة نحو الدوق الأسود ، وكانت تعلل النفس أن تقترن به فى يوم من الأيام ، ولذلك لحقت به إلى « روريتانيا » فبدا لها أن الرجل الذى آثرته بالحب والإجلال رجل فظ غليظ ، لا يتورع عن ارتكاب الموبقات فى سبيل أطماعه .

وكان من تلك الأطماع أن يتزوّج بالأميرة « فلاڤيا » ليجلس على عرش « روريتانيا » بعد أن يتخلّص من الملك الشرعى بوسيلة من الوسائل .

هال هذه السيدة ما لمسته فى حبيبها من رغبات آثمة ، فدفعتها سريرتها الصافية مع شدّة حبها له أن لا تشاركه فى تحقيق تلك المطامع ، ولا فى قتل الأبرياء ، فجازفت بتنبيهى إلى الخطر مرّة ، وبتنبيه الأميرة مرّة أخرى ، على أمل أن تتوسّل إلى الملك فيما بعد ليعفو عن الدوق أو ليَهبَ له الحياة .

ولما تبعَت الدوق إلى قصر « زندا » ازدادت حياتها ارتباكاً بغرام « روبرت » بها ، وعرضه عليها الزواج والهرب معاً إلى بلاد بعيدة ، فضاقت ذَرْعاً بتلك المشاكل ، واستعانت بى على إنقاذها من ذلك الجحيم ، وقررت أن تنفّذ ما طلبتُه منها فى تلك الكلمة التى بعثت بها إليها مع « حنا » ولكن القدر تعجّل فى الزمن ، فسارت الأمور على غير ما رتّبتُ ودبّرت .

فوجئتْ « مدام دى موبان » بعد انصراف « روبرت » ثم انصراف الدوق فى تلك الليلة ، وتراشقهما بالكلام فى حضرتها ، بأن ترى « روبرت » يعود إليها وفى نيّته أن يختطفها ويسير بها ، فاضطرّت إلى الاستغاثة فهُرع الدوق إلى نجدتها ، فعلاه « روبرت » بالسيف وجندله صريعاً ثم فرَّ من النافذة لما رأى نفسه محاطاً برجال الدوق وهو لا يعلم أقتل سيده أم لا تزال فيه بقية من روح ، ولو انتظر قليلاً لرأى سيده يجود

بنفسه الأخير بين ذراعى « مدام دى موبان » . وما عتمت هذه أن رأته بعد قليل واقفاً فى وسط الجسر يهدد رجال الدوق ويتوعدهم ويهزأ بهم ، فهبت إلى مسدسها ، وخرجت من حجرتها تريد أن تثأر للدوق من قاتله ..

أما أصحابى فكانوا قد وصلوا إلى القصر فى الموعد الذى حددته لهم ، وانتظروا عند الباب طويلاً يتوقعون أن يفتح « حنا » لهم الباب بين لحظة وأخرى ، ولكن « حنا » كان مشغولاً بتضميد جراحه التى وسمه بها سيف « روبرت » فمنعته من تنفيذ الخطة المتفق عليها .

وبقى أصحابى ينتظرون حتى دقت الساعة النصف بعد الثانية ، فذهب « فرتز » يبحث عنى عند ضفاف الخندق فما وجد لى أثراً ، فعاد إلى « سبت » واتفقا على أن يرسلا إلى المارشال يدعوانه أن يلحق بهم فى أكبر قوة ممكنة ، وعمدا هما ومن معهما من رجال إلى تحطيم الباب فتحطم بعد قليل ، ودخلوا الحصن وبرزوا عند الجسر عند ما كانت « مدام دى موبان » تهم بإطلاق النار على « روبرت » .

واندفع « سبت » و « فرتز » بعد ذلك إلى سجن الملك ، وكان أخشى ما يخشيانه بعد إذ تحققا من موت الدوق الأسود ، أن يكون حراس الملك قد قضوا عليه ورموه فى الأنبوبة إلى قعر الخندق ، فلما مرا بجثة الفرنسى « دى جوتل » ثم بجثة البلجيكى « برسونان » فى الغرفة الملاصقة لسجن الملك ، قوى فيهما الأمل بأن يكون الملك حياً يرزق ولا سيما أن « مدام دى موبان » كانت قد ذكرت لهما أنها رأتنى أقفز إلى الماء وراء « روبرت »

فدخلا إلى غرفة الملك مسرعين ، فوجدا جثة « رتشارد » وجثة الطبيب منطرحتين إلى الأرض، ورأيا الملك ممدّداً فى زاوية من الزوايا وإلى جانبه كرسى مقلوب، فخفّ إليه « سبت » وجسّ نبضه ثم صاح متهلّل الوجه قائلاً :

— « إنه على قيد الحياة ! »

فأشرقت قسمات « فرتز » وتعاون الرجلان الوفيّان على نقل الملك إلى غرفة الدوق ، وشاركتهما « مدام دى موبان » فى العناية بالملك حتّى يحضر الطبيب الذى استدعياه .

وقرّ قرار الرجلين الأمينين أن تبقى قصة الملك سرًّا دفيناً ، فأخذا على « مدام دى موبان » والحارس« حنا » العهود والمواثيق على أن يكتما الأمر ولا يبوحا به لأحد ، فأقسما على ذلك . ثم كان لا بدّ أن يجدا تعليلاً لوجود الملك جريحاً فى قصر « زندا » ، فأذاعا أن الدوق كان قد أسر صديقاً من أصدقاء الملك بَغْياً وظلماً، فأراد الملك أن يقنع أخاه الدوق بإطلاق سراح الأسير ، فذهب إليه ليلة أمس ولكن الدوق وحراس الأسير اعترضوا سبيله وقابلوه بالسلاح فقاتلهم حتّى تغلّب عليهم، ولكن أصيب فى أثناء المعركة ببعض الخدوش والجراح . أما الأسير فقد اختفى ورآه خدم الدوق يلقى بنفسه فى ماء الخندق ، فمن وجده فعليه أن يمضى به إلى الملك ولا يتركه يتصل بأحد من الناس .

لقيت تلك الرواية الملفّقة آذاناً صاغية وقلوباً طيّبة فصدّقتها ،

وأكبر الناس مروءة الملك وشجاعته ، وكان « سبت » عند ما تحقّق من نجاة الملك، قد بعث إلى الأميرة يخبرها أن الملك فى أمان ، ويرجوها أن لا تغادر المنزل حتّى تصل إليها أوامر ابن عمها الملك ، فما حفلت الأميرة بالمنع ، وكيف تقيم فى المنزل وخطيبها جريح فى قلعة « زندا » ؟ فأمرت بمركبتها فركبتها ولحقت بالمارشال الذى كان يجدّ هو وجنده فى السير إلى « زندا » فاخترق الموكب شوارع المدينة ، وكان السكان قد بلغتهم الرواية التى لفقّها « سبت » و « فرتز » فأنفوا من خيانة الدوق وأثنوا على شجاعة الملك .

وكان « فرتز » بعد أن رتّب هو و « سبت » ما شاءا أن يرتبا ، ترك لصديقه تدبير الأمور ، وذهب يبحث عنى حتى لقينى ويكاد « روبرت » يجهز علىّ ، فنى اللحظة التى اقترب فيها موكب الأميرة والمارشال إلى التل المشرف على قلعة « زندا » كنت قد ثاب إلىّ رشدى ، ونهضت أسير متوكئاً على ذراع « فرتز » فلمحت الموكب وقرأت فى عينى « فرتز » أن الواجب يقضى علىّ بالابتعاد من طريق الأميرة ، فأذعنت لرغبته الصامتة وارتميت أستريح عند جذع بعض الأشجار .

وتشاء الأقدار أن تلحق بنا تلك الفتاة القروية التى استولى « روبرت » على جوادها فترى موكب الأميرة فتسارع إليها وتقول لها :

— « مولاتى! إن الملك هنا فى الغابة . . . هل ترغبين فى أن أقودك إليه ؟ » فقال المارشال :

ــ « ما هذا الهُراء يا فتاتى؟ إن الملك جريح فى قصر " زندا " » فقالت الفتاة :

ــ « نعم إنه جريح ولكنه هنا مع أحد الضباط . » فقالت الأميرة :

ــ « كيف يمكن أن يكون الملك فى مكانين معاً ؟ ! » فقالت الفتاة :

ــ « رأيته يتعقّب رجلاً ويبارزه حتى حضر الضابط الذى معه ، والدليل على ذلك أن السيد الذى بارزه قد أخذ منى جوادى وهرب به . . . أقسم لك يا مولاتى إن الملك هنا . . . »

وكان « سبت » قد وصل فى تلك الأثناء إلى حيث كانت الأميرة ، فقد غادر القصر ليكون فى استقبال المارشال وينهى إليه بروايته ، فحيّا الأميرة وهتف فرحاً مغتبطاً :

ــ « الملك يا مولاتى فى خير وهو بعيد من كل خطر ! » فقالت الأميرة :

ــ « وأين هو ؟ » فقال :

ــ « فى القصر يا مولاتى ... فأين تريدينه أن يكون ؟ » فقالت الأميرة :

ــ « تزعُم هذه الفتاة أنه هنا فى الغابة . » فقال « سبت » ضاحكاً :

ــ « كل فتى وسيم هو الملك فى عرف الفتيات ! » فقالت الفتاة :

ــ « أؤكّد لك يا مولاتى أن الرجل الذى رأيته يشبه الملك كل الشبه ! »

فحار « سبت » فى أمره ، وبدت على وجه المارشال علامات التعجب والتساؤل ، ولعبت الظنون بفؤاد الأميرة فقالت وهى تنزل من المركبة :

ـ « سأذهب أتحقّق من الأمر ! . . . »

فتضرّع إليها « سبت » أن تصحبه وحدها إلى حيث تريد ، فما وسع الأميرة إلا أن تلبي رغبة « سبت » لما قرأته فى عينيه من معانى التضرّع والتوسّل ، فرجت من المارشال أن ينتظرها قليلاً هو ورجاله ريثما تعود .

ومشت الأميرة و « سبت » إلينا تقودهما الفتاة القروية حتّى إذا اقتربوا منا أمر « سبت » الفتاة بالانصراف فانصرفت ، فلما رأيتهما مقبلين إلينا أخفيت وجهى بين راحتى ، وأعوزتنى الشجاعة فى أن أتطلّع إلى الأميرة ، فلم تكد ترانى حتّى صاحت : هو . هو . ثم خفّت إلىّ وركعت بجانبى وهى تقول :

ـ « أجريح أنت يا " رودلف " ؟ »

لم أجب عن ذلك السؤال ، ولا تطلّعت إلى صاحبة ذلك الصوت الرخيم الذى انحدرت نبراته إلى قلبى فأشاعت فيه موجة من الخجل والأسى . لقد رمتنى الأقدار فى طريق هذه الأميرة الجميلة فأحببتها وأحبّتنى ، ثم شاءت تلك الأقدار أن تنتزعنى منها وتنتزعها منى فكيف أقوى على أن أصارحها بالحقيقة الأليمة ؟ ومن يضمن لى أن لا أصغر فى عينيها وأن لا تحتقرنى إذا ما علمتْ حقيقة حالى وظنّت أنى كنت أتلاعب بفؤادها النبيل .

خطرت على ذهنى هذه الخواطر ، ووثقت أنى مفارق بعد قليل هذه

الجنّة التى سعدت فيها ردحاً من الزمن على ما كان يحيط بى من أخطار وأهوال .

وكأنما الأميرة استبطأت الرد على سؤالها فقالت تخاطب « سبت » فى شىء من الحنق :

– « قل لى يا كولونل : ما معنى هذا المُزاح ؟ لماذا يخفى الملك وجهه بين راحتيه ولا يريد أن يكلمنى ؟ » فقال لها « سبت » بصوت يبدو الألم فى نبراته :

– « مولاتى عذراً فما الرجل بالملك ! » فتراجعت خطوة وقالت :

– « أتحسبنى لا أميّز الرجل الذى أحببته ؟ ! »

فوجم « سبت » وفاضت الدموع من عينى « فرتز » وتجلت الحقيقة لخاطر الأميرة فكذّبت مع ذلك حدْسها وقالت :

– « لا يمكن أن أُخدع فقلبى يحدّثنى أنه الرجل الذى أحببته ! » فقال « سبت » :

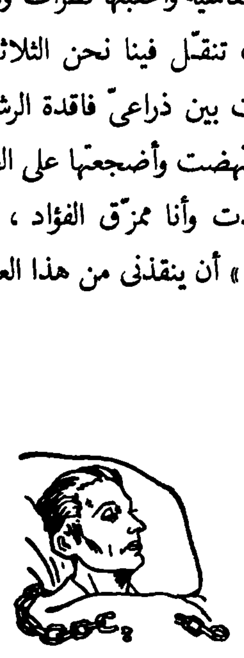
– «قد يكون الحبيب الذى شرّفته وأسعدته بحبك ولكنه ليس الملك ! فالملك فى قصر " زندا " وما هذا السيد إلا . . . » فقاطعته الأميرة وأقبلت علىّ تزيح رأسى عن راحتى وتقول لى :

– « لماذا تسمح لهما يا " رودلف " بتعذيبى ؟ لماذا تريد أن تنكر نفسك ؟ »

فتأملتها طويلاً وشخصتُ إليها كئيباً حزيناً وقلت :

— « عفوك وغفرانك يا مولاتى فما أنا بالملك ! »

فحملقت فىّ وتطاير شرر الغضب والاحتقار فى عينيها الجميلتين ، ثم اضمحلّت تلك النظرة القاسية وأعقبتها نظرات وادعة حالمة تنبئ عن الملك الذى ساورها ، وما زالت تنقّل فينا نحن الثلاثة نظراتها المنبعثة من فؤاد قريح معذّب حتى ارتمت بين ذراعىّ فاقدة الرشد . فأشار إلىّ « سبت » إشارة فهمت معناها ، فنهضت وأضجعتها على العشب ، ونظرت إليها نظرة الوداع الأخير ، وابتعدت وأنا ممزّق الفؤاد ، ثائر على الأقدار التى لم تسمح لسيف « روبرت » أن ينقذنى من هذا العذاب الأليم . . .





١٩

قضيت نهارى مختبئاً فى الغابات ، وصحبنى « فرتز » فى مخبئى تاركاً الأميرة لعناية « سبت » . فلما هبط الظلام ذهبت إلى قصر « زندا » فوارانى « حنا » فى الغرفة التى قضى فيها الملك مدة أسره ، وعلمت منه أن الملك يتماثل للشفاء ، وأنه قابل الأميرة وتحدّث طويلاً مع « سبت » و « فرتز » وأن المارشال فى طريقه إلى العاصمة .

وبينا أنا وحدى أستعرض ما مرّ بى من حوادث ، إذ دخل علىّ « فرتز » وأنهى إلىّ أن الملك يرغب فى رؤيتى ومحادثتى ، فذهبنا إليه وكان مستلقياً إلى السرير فى غرفة الدوق الأسود ، فلما اقتربت منه أمسك بيدى

وشدّ عليها وقال بصوت ضعيف :

— « ما زلتُ خائر القوى لا أقوى على الكلام ، ولا سيما أنى تحدّثت طويلاً مع "سبت" والمارشال وقد بُحْنا له بكل شيء ... أودّ أن أصحبك معى إلى العاصمة ، وأن أستبقيك فى قصرى ، وأعلن على رؤوس الأشهاد ماذا فعلت من أجلى يا ابن عمى العزيز ، ولكن رجالى الأمناء الأوفياء ينصحوننى بغير هذا كتماً للسرّ . . . » فقلت :

— « إنهم على حق يا مولاى . . . فاسمح لى يا صاحب الجلالة بالرحيل فما عاد لى عمل فى هذه البلاد ! . . » فقال وقد ثقل رأسه فأسنده إلى المخدّة :

— « ومتى أراك ؟ » فقلت وقد انحنيت أقبّل يده :

— « عند ما يشرفنى الملك بخدمة أؤدّيها له ! »

وأخذ النّعاس بأجفان الملك فأغمض عينيه ، فخرجت أنا و « فرتز » من الغرفة ولم أر الملك بعد ذلك قط .

ولما اجتزنا الباب تأبط « فرتز » ذراعى ولم يصحبنى إلى الغرفة التى كنت فيها ، بل قادنى عَبْر الممرّات والأروقة إلى حيث لا أعلم ، فسألته مستفسراً فقال دون أن يجسر على النظر إلىّ :

— « إنها تريد أن تراك ، فإذا انتهت المقابلة بينكما فالحق بى إلى مدخل الجسر فإنى منتظرك هناك ! » فسألته :

ـ « هل عرفتْ كل شيء ؟ » فقال :

ـ « كلَّ شيء ! »

وكنا وصلنا إلى باب فخم ففتحه ودفعني برفق إلى داخله ثم أقفله ، فوجدتني في حجرة أنيقة وقفت فيها الأميرة قريباً من النافذة ، فمشيت إليها ووضعت إحدى ركبتيَّ على الأرض ، وأخذت إحدى يديها المتدلية إلى جنبها فرفعتها إلى شفتيَّ فلم تتحرك ولا فتحت فاها بحرف ، فاستويت واقفاً وتطلعت إلى وجهها الشاحب ينعكس عليه لمعان شعرها الذهبي فلم أستطع إلا أن أهتف بها قائلاً :

ـ « " فلاڤيا " ! »

فاضطربت عند سماعها اسمها ، وشملتني بنظرة كلها حب وحنان وقالت :

ـ « اجلس على هذا المقعد فأنت جريح . »

وقادتني من يدي إلى مقعد قريب منها فأجلستني عليه ثم انحنت عليَّ وأمرّت أناملها على جبيني وقالت :

ـ « إن جبينك يتّقد بالحمّى يا صديقي ! »

فلزمت الصمت خجلاً من حسن استقبالها بعد أن كنت قد حسبت لمقابلتها ألف حساب ، ووطّنت النفس على أن أنطرح عند قدميها متوسلاً معتذراً ، فتابعت حديثها وقالت :

ـ « إن الشرف يدعونى أن أكون وفيّة لبلادى وأسرتى ، ولست أدرى لماذا سمح الله بأن أحبّك ، ولكننى أدرى أن الواجب يحدونى على البقاء فى هذه البلاد . . . فارحل على بركة الله ، واعلم أنى باقية على حبك ما حييت ! »

فنهضت وقلت :

ـ « ليحرسك الله أيتها الحبيبة ! »

وانكببت على يدها أقبّلها ، ثم ودّعتها وخرجت مسرعاً إلى لقاء « فرتز » عند مدخل الجسر فكان هناك « سبت » أيضاً ينتظرنى ، فأدخلانى إلى غرفة غيّرت فيها ملابسى ثم صحبانى إلى محطة السكة الحديد على حدود « روريتانيا » فبلغناها عند الفجر . وكان القطار قد أقبل يتهادى ويطلق فى الفضاء دخانه الأزرق ، فودّعتهما وكان كل منا يحبس دموعه فى مآقيه ويمسك قلبه خوف أن يتصدّع . وقبل أن أصعد إلى مركبة القطار ، حسر « فرتز » رأسه وانحنى أمامى كما كان تعوّد أن يفعل عندما كنت صاحب الجلالة وهمّ بتقبيل يدى ، فلما سحبتها منه ضحك وقال :

ـ « إن الأقدار تخطئ أحياناً فلا تهب المُلْك أحقّ الناس بالمُلْك »

ففتل « سبت » شاربه بيده اليسرى وضمّنى إليه باليمنى وقال :

ـ « إن الشيطان على هذه الأرض لا يتخلى عن أهوائه ومطامعه ! »

وبدأ القطار يتحرّك فقبّلتهما وقبّلانى ، والناس ينظرون إلينا ويدفعهم

الفضول إلى معرفة هذا المسافر الذى يودعانه بمثل تلك الحرارة والمحبة ، وأنّى لهم أن يعرفونى بعد أن كنت أحطت وجهى بلثام كثيف .

صعدت إلى المركبة وجريت إلى النافذة لأتملّى منهما بالنظرة الأخيرة ، وسار بى القطار وأنا ألوّح لهما بيدى ، وهما يلوّحان لى بأيديهما حتى غاب القطار عن الأنظار . . .





٢٠

غادرت « روريتانيا » مسلوب القلب والفؤاد ، وحططت الرحال فى بلاد «التيرول» فقضيت فيها أسبوعين مُخْلِداً إلى الراحة والاستجمام. وكنت عند وصولى إليها قد أرسلت إلى شقيقى بطاقة أخبره فيها أنى متمتع بصحة جيدة ، وأنى عائد إلى الوطن بعد أيام قلائل . فهدّأت تلك البطاقة من رَوْع أهلى وأصدقائى ، وسكّنت جأش سفيرنا فى « روريتانيا » ورئيس الشرطة فى عاصمتها .

عدت إلى شاربىّ فأطلقتهما كما أطلقت لحيتى فرجعت كما كنت ، ومررت فى طريق العودة بباريس فقابلت فيها سفيرنا ، وساءنى أن أخترع

له الأكاذيب فكان يهزّ برأسه ويقول لى إنه ما شلك قط فى إنى لحقت « بمدام دى موبان » إلى عاصمة « روريتانيا » .

ولقد أخبرنى أن « مدام دى موبان » قد عادت إلى باريس ، وأنها تحيا فيها حياة العزلة والانفراد حزناً على الدوق « ميكل » الذى كانت تحبه وأن أخبار الدوق وخيانته قد ذاعت وشاعت فى جميع الأقطار .

وفى أثناء إقامتى بباريس لم أجرؤ على زيارة « مدام دى موبان » فكتبت إليها رسالة أحييّها فيها وأستطلع أنباءها ، فورد لى منها جواب تشكرنى فيه على تحيّتى وعاطفتى الصادقة نحوها ، وتخبرنى أنها تزمع الانقطاع عن العالم فى بيت لها بالريف ، ولست أدرى أنفّذت عزمها أم لا فقد انقطعت عنى أخبارها بعد ذلك .

وبقى علىّ أن أخوض معركة سأمْنَى فيها بخسارة محقّقة . ألَمْ أعد زوجة شقيقى بتأليف كتاب عن بلاد « التيرول » ؟ فكيف أؤلف هذا الكتاب وأنا لا أعلم شيئاً عن « التيرول » ولا دوّنت عنها خبراً من الأخبار ؟ . ولما عدت إلى لندن استقبلنى أخى وزوجته بالترحاب ممزوجاً بقسط كبير من العتاب ، وللقارئ أن يتصوّر مبلغ انتصار زوجته عليه عند ما أيقنتْ أنى لم أؤلف ذلك الكتاب الموعود ، فما زلت فى نظرها فتى لا يصلح لشىء ولا يُحسن عملاً ولكنها تُعلّل النفس بأن أكون أهلاً للمنصب الجديد الذى سأتقلّده فسألتها مستغرباً :

— « أى منصب يا عزيزتى " روز " ؟ » فضحكت وقالت :

— « أتراك نسيت ؟ ألم أخبرك قبل أن تسافر أن صديقنا " السير يعقوب بورودال" سيعيّن سفيراً ، وأنه اختارك ملحقاً فى سفارته، وها هوذا يوشك أن يعيَّن فاستعدَّ للرحيل معه . » فسألتها :

— « فى أى بلد عيِّن أو سيعيّن سفيراً ؟ » فقالت :

— « سيحل محل اللورد "ثوفام" فى " ستراسو" عاصمة "روريتانيا " إنها أجمل عاصمة فى باريس . »

فكدت أقفز من مقعدى عند سماعى هذا النبأ ولكنى تجلّدت وقلت :

— « ما أحسبنى أقبل هذا المنصب ! » فصاحت زوجة أخى :

— « لقد خيّبت ظنّى يا "رودلف" فحتّام تبقى فريسة الفراغ والبطالة؟ فقلت :

— « على رِسْلك يا عزيزتى! أتستحسنين أن أذهب إلى بلاد يثير وجودى فيها وظهورى فى بلاط ملكها تذكارات قديمة ؟ . . . »

وأخرجت من جيبى صورة للملك « رودلف » الخامس ملك « روريتانيا » وقدّمتها إليها وقلت لها : « انظرى» فتناولت منى الصورة وما لبثت أن صاحت :

— « آه يا إلهى ! ما هذا الشبه النادر ! »

ثم وضعت الصورة على المنضدة فقلت لأخى :

– « وما رأيك أنت يا " روبرت " ؟ »

فنهض وذهب إلى أقصى الحجرة وعاد منها بمجلة مصورة كبيرة الحجم ، نُشر فيها كثير من الصور عن تتويج « رودلف » الخامس ملك « روريتانيا » ومنها صورة كبيرة للملك فى طيلسان التتويج ، فوضع هذه الصورة إلى جانب تلك على المنضدة وأخذت أنظارنا تحدّق إليهما وتقابل بينهما .

أما أنا فكنت أنقل نظرى فى المجلة من صورتى إلى صورة « سبت » ومن صورة المارشال ببزّته الرسمية إلى صورة الكردينال بحلته الأرجوانية ، ومن وجه الدوق الأسود إلى وجه الأميرة « فلاڤيا » وأنا فى شبه غيبوبة كأنى أستعيد ذكريات حلم من الأحلام . فصحوت من تلك الغفوة اللذيذة عند ما وضع أخى يده على كتفى وأخذ يحدّق إلىّ بنظرات تحجب وراءها السؤال والشك والاستفهام فقلت :

– « الشبه غريب جدًّا فمن الخير أن لا أذهب إلى " روريتانيا " »

فشعرت زوجة أخى بشىء من خيبة الظن فقالت متبرّمة :

– « الحقيقة أنك لا تريد أن تقوم بعمل من الأعمال . . . من يدرى فلعلك تصبح سفيراً فى يومٍ من الأيام »

فتبسّمتُ وقلت فى نفسى : أأصبح سفيراً بعد أن كنت ملكاً ! ونهضت زوجة أخى إلى بعض شأنها وهى عابسة ، وعاود أخى النظر إلىّ

مستفهماً متسائلاً ثم قال :

ـ « هذه الصورة فى المجلة . . . » فقاطعته قائلاً :

ـ « دليل على أن ملك " روريتانيا " وخادمك المطيع يتشابهان كقطرتين من قطرات الماء . » فهزّ أخى رأسه وقال :

ـ « أستطيع أن أجزم أن الصورة التى أخرجتها من جيبك للملك " روريتانيا " ليست صورتك ، كما أستطيع أن أجزم ، ولست أدرى السبب ، أن بين تلك الصورة وصورة المجلة اختلافاً ولكننى أجهل جوهره فصورة المجلة أشبه بك من تلك . »

كنت أودّ أن أطلع أخى على ما جرى لى فى تلك البلاد فإنى أعرفه رجلاً رزيناً حريًّا أن يستودع أعظم الأسرار ، ولكن السرّ المبيّت بين ضلوعى لم يكن ملكى فكتمته عنه على مضض وقلت :

ـ « كيفما كان الأمر فلا أرغب فى الذهاب إلى عاصمة " روريتانيا " » فقال :

ـ « أنت على حق فيجب أن لا تذهب ! »

ما الذى حمل أخى على أن يرى رأيى فى تخلفى عن الذهاب إلى « روريتانيا » ؟ أتراه تراوده بعض الشكوك أم تراه واقفاً على طرف من الحقيقة ؟

أسئلة لم أستطع الجواب عنها فضربت عنها صفحاً .

واختار السفير ملحقاً سواى ، وذهبت أنا إلى الريف أعيش فيه بعيداً عن الناس لا أزور ولا أزار ، منتظراً فرصة سانحة تدفعنى إلى أن أقوم بعمل نافع مفيد فى سبيل نفسى وفى سبيل المجتمع والوطن .

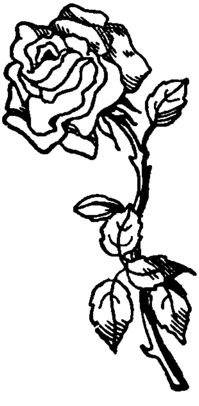
وكثيراً ما تمشّيت فى ظلال الغابات أو على ضفاف الجداول والأنهار ، فسرح بى الخاطر لا إلى المستقبل وأحلامه ، بل الماضى وحوادثه ، فتذكرت تلك الليلة الأولى التى قضيتها مع الملك ثم المعركة التى خضتها بتلك المنضدة الحديدية ، ثم الليلة التى قضيتها فى خندق الماء ، إلى غير ذلك من حوادث كنت فيها محاطاً بالأصدقاء والأعداء . وتذكرت ذلك الشعب الذى بدأ يُحبّنى ويجلّنى ، وعصابة الستة وقد فارقوا كلهم هذه الحياة إلا واحداً لعله الآن يتنقل من بلد إلى بلد يحرك المؤامرات والدسائس ويقترف أفظع الجرائم والآثام .

ومن الغريب أنى كلما ذكرت اسم « روبرت » أو فكّرت فيه جرت يدى عفواً إلى مسدسى أو سيفى ، وهتف بى هاتف أن لا يزال بينى وبين ذلك الفاجر الجسور حساب يجب أن يناقش ، فأمعن فى التمرّن على الضرب والطعن استعداداً ليوم اللقاء .

ومرة فى العام أذهب إلى « درسد » فيوافينى إليها صديقى الحميم « فرتز » فنمكث معاً أسبوعاً يقص علىّ فيه كل ما يحدث فى عاصمة « روريتانيا » ويطلعنى على أخبار الملك وأخبار « سبت » ولا سيما أخبار الأميرة « فلافيا » ويحمل إلىّ منها فى كل عام علبة صغيرة

وُضعت فيها وردة حمراء ، ولُفَّ على ساق الوردة ورقة كتب عليها هذه الكلمات الثلاث : « رودلف – فيلاڤيا – إلى الأبد » ثم يحمل مني إليها مثل تلك العلبة ومحتواها . . .

أتراني أراها يوماً؟ وأكحل الطرف بوجنتيها الورديّتين ، وشعرها الذهبي ، وأمتّع سمعي بنبرات صوتها الساحر؟ تلك أمنيّتي الحبيبة فإن لم يحقّقها لي القدر في هذه الدنيا فلعل الله يحقّقها لي في عالم الملكوت . . .



رقم الإيداع		١٩٩٧/١٥١١٣
الترقيم الدولى	977-02-5545-9	ISBN

٧/٩٧/١٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

صدر منها

٢١٢٤٠١/٠١

دار المعارف